جمال الغيطاني

دفاتر التدوين: الدفتر الأول

خلسات الكرى



دار الشروق

خُلسَاتُ الكَرَىٰ

طبعة الشروق الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email dar@shorouk.com

جمال الغيطاني

دفاتر التدوين : الدفتر الأول

خلسات الكرى

دار الشروق

نـظـري بَـدءُ عِـلَّـتـي

ويح قلبى ومـــاجَنى

يا مـــعين الضّنى عليْـ

ـيَ، أعنّى على الضَّنى

الحلاج

تَحنين

ما تبقَّى أقلُّ مما مَضَى .

يَقينٌ لا شكَّ فيه ، أعيه . أتمثّلُهُ ، أعيشُهُ . فلماذا أبْدو مبهُوتًا ، مُباغتًا كأنى لا أعرف . مع أننى المعنىُّ والمطوىُّ والماضى إلى زوال حتمىّ؟ لا أتوقف عن إبداء الدهشة ، لا أكُفُّ عن التساؤل إنْ بالصَمت أو بالنطق . .

لماذا يُسرِعُ الإيقاعُ مع قُرب التمام؟

لماذا تنشط الخُطَى وتُسْرِع الحركة عند الدنوّ؟

لماذا يقْوى العزْمُ عند قُرْب نفاذ الطاقة؟

لماذا يقعُ التوثُّبُ مع صَلْصلَة أجراس الرحيل؟

لماذا تكون أقصى درجات اللمعة قبيل الانطفاء؟

لنا فى توثُّب واندلاع لهب الشمعة أسوةٌ وعبرَةٌ ، أما ذروةُ ضجيج الآلة المحرّكة فى الطائرة أو الناقلة البحرية قبل الكفُ مباشرة . إدراكى غشَّانى وانتباهى قضَّنى .

حتى الثلاثين ، يكون التطلع أكثر من الالتفات . بدءاً من

الأربعين، وبعد فقْد الأحبة، يكون بدءُ إدراك الفوْت. حتى إذا حلّت الخمسون، وأوصدَتْ أبوابٌ، أيْقَنْتُ أن ما تبقى سينقضى كَنُدَف الغمام إذ تذروها الرياحُ، لهذا شرعتُ، قلتُ فلأعْتَبرْ السنوات القادمةَ، إذا قدّر لى اجتيازها. حقًا: لا تدرى نفسٌ ماذا تكسبُ غداً ولا تدرى نفسٌ بأى أرض تموت.

خطوة المرء قوامها ساقان، واحدة إلى الوراء، والأخرى إلى الأمام، الأولى انقضت، ولأننى لا أدرى بالضبط ما سيكونُ عليه الحالُ فى اللحظة التالية، قلتُ فلأشرعْ.

هكذا تهيأتُ. ورغم أننى مسكونٌ بالتوق، إلا أننى كنتُ بحاجة إلى التحنين، وهذا من الحنين وغيره أيضا. الحنينُ كما جاء فى «اللسان» هو الشديد من البكاء والطرب. وهو خلاصة الشوق وتَوَقَان النفس. وهذا حالٌ غالبٌ علىَّ فقد حُزْتُ الحنينَ وصفًا ومضمونًا.

يُقالُ: حنّ قلبى إليه فهذا نزاعٌ واشْتياقٌ من غيْر صوْت، وحنّت الناقةُ إلى ألافها. فهذا صوت مع نزاع، وكلا الأمرين عالق بى. أما التحنينُ ـ كما أفهم فهو الحضُّ على الشوق، والتشجيعُ على الميل. وكلاهما لا يكونُ إلا من أجل عزيز، غال، بعيد، وهل هناك أعَزُّ على المرء من عمره؟

هل ثمة أقْسَى من اللحظات المُوَلّيَةَ؟

لا أظنُّ. لذلك شرعتُ، غير أنني أبدأ بالتحنين. فالمسافاتُ بعيدةٌ والعلامات باهتة، بل إن بعضها مُحىً تمامًا. وأصْعَبُ الترحال ما كان في الذاكـرة، وعـهـدى بالتـحنين قـديمٌ. فى زمنى الأول، مسـقط رأسى، حيث النخيلُ وظلالُ الماء فى القنوات السارية. ورائحة الخبيز عند الظـهيـرة، وعبقُ البـوص، والطينُ الـراكـدُ، والتينُ العسليُّ. و «بكّاتُ» ماكينة الطحين الغُرُوبية. وأصداءُ تلك الأغنيات التى يوحد بينهـا الشـجنُ، إذ يجتـمعُ النسـاء فى صـحن دار فسـيحة. يبـدأن التحنينَ، يقصدنَ إثارة الأشواق إلى أرض يثربَ ومكة، كنَّ يقصدنَ إثارة الشوق عند من يُصغى ويسعَى، غير أن أصواتهن اتخذتْ سبيلاً عـجـبًا، سَرَتْ عـبـر الوقت بعـد أن هجـعت عندى زمنًا طويلا، فاستثارت أساى. وامتزجت عندى بأنغام غامضة يصعب تصنيفُها أو نسبتهـا إلى مرجعية بعينهـا، أو مقامات خاصة، منها القادمُ إلىَّ، السارى نحوى، غيـر أن معظمهـا صادر عنى، الغريبُ أنها بعثت مـلامحَ طافت بى، عـبـرتنى، لا أكـاد أمـسك أحـدها حتى يفلت. أوشك على التمكن فيولّى. رغم انتفاء اليقين، إلا أن ما بدا صعبًا، عسرًا أثار شجاىَ. أما الرفارف التى أحاطت بى ومستنى وأجَّجَتْنى، فمتعلقٌ أمرُها بالمرأة، فكما بدأ سعيى منها واستمر إليها. أتوسل بها وألهبُ بها أمرى لعل منهلى دان. .

ما يُمكن أن يكون

ليس الجمال الأنثوى إلا إشارةً وتلميحا إلى عذوبة الكون المتكوّن بالفعل والمحتمل أيضا. أنفقتُ عمرى فى التشوُّف إليه، غير أننى لَم أرتَو ولم أَنَلْ حظى.

إذ يبدأنزوعى فالبدارُ. البدارُ إلى أول من عرفتُ، إلى رحم أمى، إلى عنائها حتى انفصالى عنها واتصالى بها، و المعلوم أنه ما من كينونة إلا بعد مجاهدة وتدويم. فسعادةُ استيعاب اليُسْر لا تكونُ إلا بعد الإفلات من العُسر. ويقدر المشقة يكونُ الانشراحُ، والمعرفة نسبيةٌ، وليس تحصيلها مريحًا فى كل الأحوال، ومازلتُ أسعى، ومن يَسْعَ يلتفتْ، ولا يكونُ الالتفاتُ إلا لمن قطع قدراً من الطريق وجرى له فقد. كما لايصير التطلعُ إلى الآتى إلا لمن عنده توقٌ. وشوقى دائما إلى الأنثى فى سائر أحوالها وتجلياتها، فى ظهورها، فى خفائها، عبر كافة الأزمنة، لا يقتصرُ الأمرُ على وقتى المحدود، ذلك أن صلات قامت بينى وبين من يفصلها عنى قرونٌ شتى وحقبٌ. ألغيتُ المسافات فتمكنتُ. اقْتَرَنَتْ لذتى الحسية بمتعتى المعنوية، ولهذا شرحٌ أوردُهُ إذا سمحَ الحالُ وطاب.

تفاوتت درجاتُ معرفتي. وظلالُ الصلات.

تمت علاقتي بالقليل منهن وبلغت، وهؤلاء خارج بثّي. الحقّ.. أنني لم أسعَ طيلة عمري إلا صوبَ الأتمّ منهن. ولا أرتجف إلا لظهور المكمّلات المبهرات. عند ظهورهنّ يترددُ أقراني خشيةً ومهابةً أو تحفزًا، غير أنني كنت أقْدم، وأثابر، وأسلك طرقًا شتى حتى أسلم بريدي وتُفَضّ مظاريفي، ونتبادل القراءة، فالتواصل اطلاعٌ وإحاطةٌ، غير أن ما تم لم يدمْ في معظم الأحوال لعَسْف الأحوال، وصعوبة الظروف، وتباعد المسافات وقلة الإقدام، وتمكُّن الخذلان بعد وقوع الارتواء.

منْ هؤلاء قلةٌ. بل أصرّحُ فأقرُّ أنهنّ لا يتجاوزْنَ أصابع اليد الواحدة، منهن الباسقةُ والنَغميَّةُ، والرَّويَّةُ، والأنثى الشهابيّةُ.

عرفتُ المطابقةَ، المناسبة لحالي، العاطفةَ، الحانةَ عليّ، الدالةَ على ما يَخْفَى عليَّ مني، لكنني لم أنلْ منهن حظي، إما لتعرفي بهن في اللحظات الأخيرة الفارقة، ولم يكن بوسعي إلا الامتثالُ. أو لميل الحال وانتفاء الملاءَمَة، حقا.. لكَمْ امتثلتُ للظروف. أنا الذي عشْتُ زمنا ليس بالهين أسعى إلى تغيير الظروف تمهيدا لتغيير البشر، بل حلمتُ بتغيير العالم وفاضتْ بذلك قناعاتي، فإذا بالعالم يغيّرني ويبدّلني، وأصلُ إلى لحظة لا أقدر فيها على تأجيل رحيلي يومًا واحدًا لتحقيق الوصْل وتمام الكفاية.

وعرفتُ الوافدات عليَّ من حيث لا أدرى، مَن لم يَسْعيْنَ قط فى عـالم الحس. أعنى من وَفَـدْنَ إلى أحـلامى فـائْتَنَسْتُ بملامـحـهنَّ، وفضْتُ بوجودهنَّ، وبعَثْنَ عندى بهجةً غامضة شرحت صدرى. وفاضَ مائى أثناء ضجْعتى، وصحوتُ على نشوة غيبية حسية. وحتى الآن لا يمكننى الإلمامُ بلحظات وفادتهنَّ أو استعادةُ إقامتهن. إذ جئْنَ وذهبْنَ، حَلَلْنَ ورَحلْنَ، ولم ألمْ منهن بطرف، وهذا حالٌ شائع لكن تدوينه صعب. وهذا ما سأقدمُ عليه يومًا، غير أننى أبدأ بما هو أغربُ وغير مألوف.

بعضُهُنّ سَعَيْن فى مجال بصرى. لم أدرك وجودهنّ الحسى. لم يمتزجْ عرقُهُنّ بعرقى. غير أن طلعة كل منهن أخذتنى عنى، وكثيراً ما يقص المرء ما تمنى أن يكون لا ما كان بالفعل. والأكثرُ أنه يرى بالتمنى مـا يمكنُ أن يكونَ بدلا من ذلك الذى كـان. . هذا مـحـور تدوينى التالى.

لقيت معظمَهُنّ فى لحظات التقاطع الزمكانية الحادة، فى انتقالى وإقـامتى، ومن هؤلاء الأنثى الملكة. والثُّريّا والسُّنبلة، والجوهرة، والبلبلة، والمتكوْكبَة. والأنثى المجرَّة. . وغيـرهُنَّ. وإنى لموردٌ تفاصيل رؤيتى وتوقعى.

نعرفُ ما كان، ونلم أحيانًا بما يكونُ، لكننا نجهل ما ستصيرُ إليه الأمورُ. بل إننا لا نمعنُ البصيرةَ فى احتمالات ما يمكن أن يصيرَ إليه

الحـالُ الماثل، ولأن مـا فـات صـار إلى هبـاء. مـا تحـقق منه ومـا لـم يكتملْ، لذلك ألحَّ عليّ إدركُ ما كان ممكنًا أن يكون.

هذا وعرٌ، فـالإحـاطـة بما كـان ـ حـقًـا وفـعلا بـالمشـاهدة والمعـاينة ـ مستحيل، فكيف تَصَوُّرُ ما لم يقع أصلا والبنيانُ عليه؟

ألف

احتواها بصرى عندما قصدتُ جزيرة البحرين يوم الجمعة بعد ظهر يوم شتوى سنة سبع وثمانين. منفردا جلستُ فى الصالة التى تسبق دخولَ الممرّ المؤدى إلى الطائرة، أتأمل المسافرين، جنسياتهم البادية من الملامح، كيف يتصرف كل منهم. أخمّنُ الهويات المجهولة والغاية من الرحيل ودرجةَ الصلة بين كل اثنين يصلهما حوارٌ. هذا دأبى عند قطع المسافات. غير أننى فى لحظة توقفتُ. أدركنى وجودُها قبل دخولها مجالَ بصرى. كثيراً ما اتفق لى ذلك مع الإناث الحاضرات المشعّات، النافثات فَيْضَهُنَّ. لم أتلفتْ، إنما كنتُ شاحذاً كافة حواسى. حتى أصغيتُ إلى ذبذبات صوتها، إلى تضوّيه تلألئه، مرتْ من أمامى فأدركتُ أننى على شفا من جوهر الحرف.

الألف!

قوامها متحدٌ بذاته، ليس بحاجة إلى ما يسبقه أو يليه، سياق جسدىٌّ خلوٌ من أى ميْل، حالٌ مستمرٌ لاينقطع ولا يكفّ، سامقٌ.. لكن فى غير إفراط. لا نهائى ومحدودٌ فى الوقت عينه، صاعدٌ أبداً، يحدد ما فوق وما تحت.

عنقٌ مـوات وشـمـخـةٌ ملكيـةٌ. إنسانية. قَـوامٌ جلىٌّ ناصعٌ، رغـم انبساطه إلا أنه يُلمّحُ بشرفتى صدر ناهد. وأرداف متينة. مزدهرة. استدارتُها متصلةٌ. مكتملةٌ. كل امرأة كوكبٌ بذاتها، و النجوم دائرية التكوين والمسار. هكذا. . كل امرأة دائريةٌ لاتكتمل إلا بتكوكبها مع غيرها. إلا أن سموق تلك طاغ، مهيمن. عَمَّ واحتوى.

ألفٌ هى. تبدأ مثل الحرف من نقطة وتنتهى فى نقطة، منها تتوالد كافةُ الأشكال، المستقيمة والمنحنية، الناقصة والمكتملة، هكذا يكونُ الألف، فلنتمعنْ.

إنه وحيد. مكتمل بفرديته. كل الحروف تتشكل منه، لكنه لا يأخذ منها ولايحتاجُ، هكذا بَدَتْ فى خطوها المتئد النزيه. فى ارتجافات قدّها. فى تطلعاتها العلوية، حتى بعد جلوسها. . كأنها لم تنثن. ألفٌ فى قعدتها. فى انحنائها، كلها طَلْعٌ ومناوأة وتحدّ.

عبر التحليق صرتُ فى مجالها البصرى، أتقدمّها بصفين من المقاعد. إذا تطلعتُ بطرف عينى ألمحها، إذا التفتُّ لا أقدر على الاستمرار فأنثنى. عيناها خضراوان. بشرتها سمراء. وجهها متسقٌ مع قوامها المبدئى، تنفذ مويجاتُ صوتها إلى صميم سمعى، تُلغى هديرَ الأعالى. كلّ ما عداها، تتحدث إلى طفل صغير، بين التاسعة والعاشرة، تحاورُه كَندّ، لم يصلنى صوتُه قط، ربما لشمولها ما عداها.

حقا . . لم ألمح طوال الرحلة غيرها . الآخرون أطيافٌ ولا قسمات واضحة . بعد انقضاء المدة لا أقدرُ إلا على استعادتها هى ، خطواتها ، شروعها عند المشى كالراية ، اختزلتْ السوابقَ واللواحقَ ، وكلما استعدتُ أو رأيتُ أو جالستُ أو أصغيتُ أو خلوتُ بأنثى أطالع عندها قبسًا ، غير أننى لم أرصد ملمحًا منها عند الأخريات .

خرجنا . . ممر طويلٌ مؤدٍّ إلى صالة فارقة ، إما المضىّ إلى مكاتب الجوازات لدخول الجزيرة ، أو الاستمرارُ إلى صالة العابرين المتجهين إلى نقاط أخرى من المعمورة .

أبطأتُ حتى تتقدمَنى . وأسعَى فى إثرها ، التابعُ يرى ما لا يَطّلعُ عليه المتقدمُ ، ثُمَّ . . كيف يمكن سبقُ أول الأبجدية؟ هل قبل البداية بدايةٌ؟

تهادتْ ولم أضلَّ عنها ، حتى بلغنا تلك النقطة ، افترقتْ خطانا ، هذا حتمىّ . قدَّرتُ أنها متجهةٌ شرقًا . من هنا يبدأ عبورُ المحيط الهندىّ ثم الهادى . . لم أفكر فى القارّات ، غير أننى رأيتُ مياهَ المحيطات والطيرانَ فوقها ساعات طوالاً ، ستحلق عبر الفضاءات العُلى مودعة أثرًا خفيًا لا يبدو إلا لمن أدرك واستوعب!

آخرُ ما لمحتُهُ منها الهامةُ المؤطرةُ بشعر غزير ناعم ، تُرى . . أىّ مدينة؟ أىّ فراش يتمدد فوقه هذا القوامُ المبدئى ، الفارهُ ، الناعم؟ كيف لم أقْدمْ؟ كيف لم أفتعل الحجةَ للوقوف على الحد الأدنى؟

تركتُها للفضاءات التى تحتوى المحيطات، غير أنها وَفَدَتْ علىّ من حيث لا أتوقع، بعد زمن غير قصير.

جرى ذلك عصرَ يوم قصدتُّ فيه البحرَ. كنتُ بحاجة إلى الانفراد، إلى مواجهة الأفق غير المحدود، المتجدد، إلى تتابع موجه، إلى صفائه. إلى أبديته، منذ سنوات يفاعتى اعتدتُّ المجىء إلى موضع بعينه من شاطئ صخرىّ غربَ قلعة قايتباى، حدّ الميناء الشرقى السكندرى العتيق، أجىء إلى الأمواج والمدى كمتأمل وليس كسابح. فلم يسبقْ لى إتقانُ العوم. هنا أنفردُ بالبحر كليةً. ما من حواجز، أمواج صناعية، أو مراكبَ راسية، إنما أفقٌ جموح يحوى نذيراً ونبوءة بالنهاية حيث موضعُ مغيب الشمس، كنتُ أحدّق صوبه مجتهداً فى نسيان كل وجود يقوم ورائى، عندما ظهرت أمامى.

تتقدمُ صوبى، نحوى، يقصدُ قوامُها الفارهُ جهاتى. ورغم أنها آتية، مقبلة، إلا أننى لم أرها إلا جانبية تماما كجداريات المعابد الفرعونية، حيث تطالعنا الوجوهُ فى أوضاع مغايرة. هكذا لاحَتْ عند ظهورها مرتديةً ثوبها القاتمَ الذى طالَعَتْها به عندما وقعتْ عيناى عليها أول مرة. لم أر قدميها، كانت تخطو فوق الأمواج المتلاحقة. واثقةً، لاتميلُ مع الهوى. داعيةً، آمرةً، ملبيةً، شخصتُ..

شبَّ داخلى بهت، لم أتوقعْ، خاصة أن ظهورها اقترن باندلاع الرغبة، مع أن محاولاتى خلال استدعائى لها بالمخيلة لم تسفرْ عن

تجريد قط . لم أقدر على تخيل تضاريسها الأنثوية . أو استنتاج أمرها عند بلوغ ذروة النشوة، وهل ينفرط عقدُها أم يبقى متماسكًا؟

صار أمرى مختلفا بالكلية عند رؤيتى لها قادمة، واثقةً، أولّها فى البحر، وآخرُها فى الفضاءات العُلى، منها يتدفقُ الموج، ويبدأ القطرُ، تصلُ المافوق بالماتحت، فراهتُها ، اندلاعُها المشبوبُ، المستمرُّ، المتدفقُ. قمتُ.

غير أننى واه، كالنقطة المجاورة للألف. كانت حضوراً وكنت مجرد إشارة. مويجة صدى، مدتْ يَدَها. لم أدر. . أهىَ دعوةٌ أو أمر؟

نزوعٌ لم أعرفْ مثيلا له قطّ. تأجُّجٌ لم أبلغْ مثلَه حتى فى سنوات اكتمالى الأولى.

صرتُ مشدوداً إلى يدها الحاضة، الحازمة، المغرية، تطلعْتُ حولى، إلى الصخور الأزلية إلى المبانى البعيدة، إلى البرّ الذى سعيت دائما فوقه، وفى لحظة بعينها لَفّتْنى إيماءاتها المشجعة، أن أمضىَ صوبَها، أن يكونَ اللقاءُ فى الماء وبالماء، بدأتُ خطوى وعبارةٌ تترددُ عندى لم أدر مصدرها.

«هذا أوانُها. . هذا أوانُها»

الملكة

مثلْتُ فى رحابها مع بَدء تعدُّد أسفارى، قبل بلوغى العشرين بعامين شرعتُ فى الرحيل إلى قرى ومدن فى الوجهين: البحرى والقبلى والواحات لمتابعة تنفيذ ما نصممه فى المركز الرئيسى بالقاهرة من نقوش وزخارف الأبسطة الفارسية والتركية والصينية والمغولية والعربية والفرعونية. أنفقتُ سنوات من عمرى فى دراستها وإتقانها والإلمام بأسرارها وكذلك صباغة الألوان ودرجاتها وأطيافها ولذلك حديثٌ قائم بذاته.

لا أذكر جلالَها إلا ويتداعى إلىّ وداعُ أبى لى لحظة ركوبى القطارَ متجها إلى الجنوب فى أول مهامى، خرج ـ رحمه الله ـ ورائى لتوديعى وإغراق حنوّه علىَّ فى أول مرة أفترق عنه منفردًا، ومنذ أن بدأتُ ذلك الصباح لم أكفّ. لحظة تحرّك القطار، تلك الحركة البطيئةُ ما ثلةٌ دومًا. علامةٌ عندى، أعود إليها فى أزمنة شتى. وأمكنة قصية، تلك لحظةٌ لى وقفةٌ بشأنها، إزائها.. لكن فى تدوين آخر.

قصدتُ الجنوب. والرحيل إلى «قبلى» عندى تلبية للتوق والنزوع والتماس اللجوء عند المقصد والمرجع، هنا أول هواء تنسَّمْتُهُ. أولُ

أرض مسَّها وجودى الدنيوى، وخلال تلك الرحلة لم أفكرْ ولم أتوقع رؤيتى لها عند وصولى مقر إقامتها « ديرَ الجنادلة» . .

بعد انقضاء ثلاثة عقود جرى فيها ما جرى. ونالنى ما نالنى، لكننى لا أصغى إلى الاسم إلا وأهفو، يتردد عندى نغمٌ قديمٌ يُمَهّدُ لحضورها، لبهائها، تبدو كما وقع بصرى عليها أولَ مرة، كأنها ماثلةٌ، باقيةٌ حتى الآن كما هى، لا يدركُها تغيُّرٌ ولا يلحقُها بلَى. دائما صادحةُ الألق مبشّرة.

«دير الجنادلة».

بيوت مؤطرة بالنخيل. وأشجار الدوم. وقنوات المياه الفياضة برائحة الخصوبة. وتراكم البوص فوق البيوت، وتمخطر الأوزّ شاهق البياض فى الطرقات الضيقة آمنًا من كل سوء. الرائحةُ العلامةُ، مزيجٌ من دخان الأفران، وتنفس النبات. وحضور عناقيد العنب. وثمار التين. ونضج البلح. . عناصر شتى تجسدُ حضور التفاصيل القديمة المدونة على جدران القبور والمعابد ودهاليز التيه. البلدة أكبر من قرية وأصغر من مدينة، تقع الوحدة الإنتاجية فوق موضع خارجَها ، بناءٌ قديمٌ تحوَّل إلى مقرّ. آخرُ ما يخطرُ على بال أى إنسان رؤيتها فى هذا المكان المتواضع . أن يواجهَ جلالا قائمًا مؤثراً، غير أن هذا ما جرى لى. حتى الآن لا أدرى لماذا اتجهتُ إلى تلك الوحدة، نسيتُ السبب، المؤكد أن مصنع السجاد الذى أقصدُه فى مكان آخر، الوحدة تتبع الشئون الاجتماعية، لا أدرى أيضا. . مَن صحبنى أو صحبتُ مَن؟ غاب كلُّ ما عداها. وحتى الآن إذا ورد هذا البلدُ على

خاطرى أو مررتُ به أوسمعتُ فلا أرى غيرها. استعادة اللحظة الأولى من الأسباب! تتداعى عندى أوصافًا . . .

مرمرية

فيضها

خميرتها الباقية

إشعاعها الذهبىُّ على ما عداها

سموقُها. تلألؤ ثغرها إذ تنفرجُ شفتاها الريانتان، المرتويتان، المتوردتان، المتأهبتان، الخفرتان، الداعيتان، الحاضتان، المنذرتان أيضًا. حضورُها يؤنث المكان، معها لا يمكنُ النظرُ إلى أرض أو سماء أو جدار أو عتبة، لشدة بثها لا يمكنُ الشخوص إليها، إنما يُضْطَرُّ الإنسانُ إلى الحيدة بعينيه، كيف الأمرُ إذن مع الدنوّ وعند الشروع فى لمسها.

عيناها طازجتان، رأسها مُشْرَعٌ. جبهتها مرفرفةٌ. أما صاريها فأشَمّ، ورغم الهيبة، وحيازتها سلطةَ الجمال الرادعةَ، إلا أنها حانيةٌ، دافئة النطق كحليب النوق الفائر الخارج لتوّه من تلافيف الضرع، أمضيتُ سنوات متتالية لا أستدعى نبْرَه إلا ويستنفر القشعريرَة داخل فقرات ظهرى. مع تقدمى عبر الزمن أو تقدّمه بى راحتْ ملامحُه تنأى، هذا عهدى بالأصوات. إنها أول ما يغيب،

أول ما يشحبُ من الملامح . هذا ما فصلته فى كتاب التجليات، فليرجعْ إليه من شاء، فلم أقْدمْ على تدوينه إلا إشهاراً للقدرة الإنسانية فى مواجهة النسيان. راح منى صوتُها غير أن فيضها ما زال مُدركى.

بقدر ما كان وجودها حاضًا، آمراً ، محرضًا على البقاء فى الحياة الدنيا وليس فى مدارها فقط، بقدر ما كنتُ مضطرا إلى الذهاب. إلى المغادرة، ولم يكن ظرفى مساعداً على بقائى بحضرتها. ولزومى بلاطها.

لحيظات دام اللقاء، خَلاَ لَهَا عمق إيمانى وثَبُتَ قلبى. لكن أحزانى المبكرة سلكت طرقًا مستحدثة علىّ، لكمْ فاجأتنى فى أوقات انفرادى، خاصة فى أسفارى أو عند جلوسى أمام البحر.

العجيب أننى رغم استيعابى لوثارة جسدها إلا أنى لم أستدعها إلىّ عاريةً قط. رغم تعرفى على قسماتها مع حشمة الثوب. لم أرها إلا واقفة. رغم أنها كانت قاعدةً، رانية.

مجرد ظهورها أنحنى ولو كنت فى جمع، أطأطئُ هامتى حتى لو ضمَّنى حشدٌ. أقومُ بأداء مراسمي عند ظهورها لى، تمامًا كما رأيتُها أولَ مرة. وحديثى فى ذلك يطولُ غير أننى أقصرُ خشية الإملال.

لكننى موردٌ ما جرى فى تلك الضاحية من مدينة موسكو سنة سبعة وثمانين. عندما دعتنى صاحبةٌ لى إلى تناول الغداء فى مطعم

ريفى داخل غابة مجللة بالثلوج البيضاء. حرارةُ ما دون الصفر بخمس وعشرين درجة، هذا غريب، جديد علىّ، غير أننى كنت فياضًا، مغدقًا بغير حساب، بالغٌ أوجَ عشق مباغت. طام، فى اندفاعته الأولى حيث يختلطُ كلّ شيء بالأبد، ويظن المرء أنه ساع أبدًا، وأن الحالَ مقيمٌ، لن يزول.

مناضدُ خشبية، بدائيةُ الحضور، أطباقٌ معدةٌ مسبقًا. لفت نظرى ثومٌ مخلل، شرائح كرنب مغموس فى خل، رقائقُ لحم بارد. كنت نائيا عن كونى المألوف، فى موضع لم يخطرْ ببالى الوصولُ إليه يومًا بصحبة مَنْ قصدتُها، مَنْ تماسٌ مكنونى بمكنونها. اقترب منى رجلٌ يرتدى ملابس الفلاحينَ الروس القدامى، كثُّ اللحية. لم أدر.. هل يعمل فى المطعم أم وَفَدَ من الخارج.

تحدث إلى صاحبتى. أدركتُ أنه يقصدنى، نظراتُهُ واضحةٌ. بعد أن فرغ قالت دَهشةً:

«هناك من ينتظرُكَ بالخارج»

«أنا؟!!»

قمت متعجبًا. مَنْ يطلبنى هنا فى هذا المنأى.. مَنْ؟

اجتزتُ البابَ المزدوج إلى الخارج بعد ارتدائى معطفى وقلنسوةَ الفرو. قالت صاحبتى إن خروجى بدونها جنون مؤكد ولو..

لثوان. هكذا أعددتُ نفسي لمواجهة الخلاء غير أنني فوجئتُ بجلالها في الشتاء الروسي الناصع.

تقف مرتديةً الملابسَ ذاتَها التي رأيتُها بها في قيظ صعيد مصرَ، ثوبٌ أحمرُ اللون. متسقٌ بدرجة ما مع خمرية جسدها، تبتسمُ بهدوء، تحيط كتفَ فتى تجاوزَ العشرين. متسق فيه رقةُ أبي، وامتثالُ أمي لشدائد الدهر.

بدأ عندي نغمٌ قديمٌ يمتُّ إلى موشّح أندلسي، مُؤتزر بنغم من بَشْرَف تُركيّ، وقبس من ناي السهوب. كُلٌّ عندي مرادفٌ لناحية ما، لا نحناءة ما، لميل ما في طريق لم أسلكْه. هذا حدُّ الحنين الأقصى الذي ينذر بهلاك مبين.

أشارتْ فتقدمتُ. عند حد معين:

«انظر»

تطلعتُ إلى الفتى، قالت:

«هذا ابنُكَ من صُلْبك..»

أقدمتُ. غير أنها أشارتْ بالكفّ فامتثلتُ. قالتْ:

«حملتُ به لحظةَ لقاح عينيك لعينيّ..»

ثم قالتْ:

«هذا عمر لقائنا . . »

اتجهتُ صوبه. يقيني أن عنده ما عندي، لم أقدرْ على النطق. ذُهلتُ عما يحيطني. عن الثلوج الكثيفة والشجر المغطّى وآثارالأقدام المُولّيَة واللحظة الفانية المفنية. عادتْ لتشيرَ فتوقفَني بإشارة لا يمكن ردُّها. حركةُ يَدها كـإشارة الملكة نفرتيتي عبر الأزمنة الغابرة على جدران تلّ العمارنة بحضرة زوجها أول الموحدين. إشارةٌ مانعةٌ، حاسمةٌ، قالت:

«تلك لحظتي لأطلعك على من أنجبتَ ومن نسيتَ. . »

ثم قالت:

«مَنْ يَصرْ أبا في الترحال لا يتحقق له لقاء. . »

ثم قالت:

«الأبوة قرارٌ. . وأنت لا قرارَ لك. . »

ثم قالت:

«إنما أردتُ أن أطلعَكَ لا غير. . »

كدت أهمي. غير أن إشارةَ يدها حاشتني.

ضـوء

كلٌّ غريب جاهلٌ.

ولأنني نزلت ديارها القصية عابرًا فلا أعرف شيئا عنها ولن ألم ببعض أخبارها، لم يدمْ مُكْثُها في مجال بصري إلا لحيظات مارقات. لا أعرفُ اسمها أو محيطها الذي شبَّتْ فيه. لكنها عندي مشعةٌ، وكنيتُها: الأنثى الضوء. . ، لظهورها توقيتٌ معلومٌ. لا يحتجبُ إلا عند فتور الهمة وحلول الغمّ ونَوْء الكدّ، رأيتُها في سمرقند. عندما نزلتها بصحبة جنسيات شتى وبلدان قصية، احتوتني المدينة وألممتُ بآفاقها. إذ كنتُ مدججًا بما قرأته عنها، وما عرفتُه، ما سمعتُه من موسيقى تمتُّ إلى أجوائها، وأشجار رأيتها في منمنمات قديمة لا عهدَ لي بها في موطني، وقباب وزخارفَ خزفية، لونٌ أزرقُ غالبٌ. وأصفرُ تداخلهُ حمرةٌ، وخطوطٌ مهيبةٌ. راسيةٌ في الأعالي متضافرةٌ متعانقةٌ.

كنت في الحقيقة عالما من جهة وجاهلاً من جهة.

أحتوي سمرقندي داخلي، تلك الخاصةَ بي، المنبعثةَ مني، المتصلةَ

بخططى ودقائق أشواقى. ما تبثه مخيلتى، من تلك الناحية أعتبر نفسى عالمًا، مُلمًا.

لكن المدينة التى جئت إليها. القائمةَ فى دوائر حسى، لا أعرف عنها إلا ما يفضى إلىّ من خلال الأدلاء والمترجمين. لو ابتعدتُ قليلا عن النُزل الذى أوينا إليه ربما لا يمكننى العودة، أسمعُ القومَ يتحدثون فلا أقدرُ على فهم حرف من اللغة الأوزبكية. هنا أكونُ جاهلاً.

شارعٌ يمتد فى ذاكرتى الآن، متاجرُ صغيرة، كراتُ جبن مستديرة رأيتُ مثلها فى بلاد الأكراد، خضراواتٌ طازجةٌ ونباتاتٌ لم يقعْ بصرى عليها، ما أراه غريبا يعتبر طعامًا وقوتًا لأهل الديار، أما مداخلُ المساجد الشاهقة والقبابُ المغطاةُ بقطع الخزف الأزرق والأبيض فمما أثار عجبى.

قاعة مستطيلة فى بناء عتيق، شاهقة الارتفاع، تصطف الأرائك والمقاعد بمحاذاة الجدران، فى مثل تلك الأماكن المثقلة بتردد الأنفاس تُشْحذُ همتى ويطولُ إصغائى إلى الزمن المولى. الآن. . وقتَ تدوينى هذه السطور يستحيل اهتدائى إلى موقعه، حتى لو قدر لى الحلول مرة أخرى فلن يكون الظرف مماثلاً. خلال السنوات الفاصلة، انهارت دولٌ وقامت أنظمة، تبدلت أوضاع، استقلتْ بلاد الأوزبك، وانفرطَ عقد الاتحاد السوفيتى. وتبدلتْ العقائد، ما مصير

القاعة الآن؟ . ربما أصبحت مقرًا لبنك أو مطعما ، أو صالة ألعاب ، بل إنني أتساءل عن الأرض التي تسعى فوقها الآن إذا كانت أنفاسها تتردد ، وفي أي بقعة ثوت إذا كانت قُضيَتْ؟ ما من إجابة شافية ، غير أنني أعي امتثالي للمكان ، لتلك اللحظات الحاوية ، باقيةٌ عندي ، أرحل به ، محتويًا له حتى وإن شق وصولي إليه وانتفتْ الإمكانية ، لم يكن المكانُ وليس الزمانُ إلا إطارًا لظهورها المؤرق ، لكن لمعانها الشُهْبيّ لم يتمَّ بغتةً ، إذ أستعيدُ ذلك الوقت النديّ ، ما بعد الظهر ، أثق أنني كنت أتوقعُها ، منذ متى وكيف؟ هذا مما لا أقدر على تحديده .

بعد ترحيب ومجاملة دخل عازفان ؛ أحدهما يمسك آلة وترية ، مستديرة ، مجلوة ، طويلة العنق ، الثاني يمسك كمانًا ، أشرع قوسه ومال عليه ، بعدهما ظهر ثالث ، اتخذ مجلسَه على مسافة قليلة ، كان منحنيا يتطلع إلى الناي الخشبي ، الغليظ بالقياس إلى ما رأيت من قبل .

بدأ الثاني بتمرير قوسه على الأوتار ، أناتٌ وعرةٌ ، شجنٌ نفاذٌ ، أنغامٌ حزينةٌ ، أسيانةٌ . سرعان ما تبعتْها قطراتٌ دقيقةٌ من الآلة الوترية التي لم أرَ مثلها ، ثم اندلع الناي .

لم يكن هذا كله إلا تمهيدا لظهورها المشعّ ، الفواح ، في لحيظة يصعب تعيينها اتخذتْ طريقها إلى الصالة ، هل دخلتها وقدماها ملامستان الأرض؟ أم سابحةٌ في المجال؟ . أصابعها مفرودةٌ ، غير

متضامة، متباعدةٌ لكنْ كلٌ منها له وضْعُهُ الخاصُ، إشارةٌ بمفردها. هفهافةٌ، رضابيةٌ. تتحرك ما بين الظل والأصل، دائمًا عند الحدود الفارقة، الواصلة، التى يصعب رصدُهَا. شَخَصْتُ إليها.

أحيانًا.. ألوذ بأماكنَ معينة. متقنة، قائمة منذ زمن طويل، أتدثر بظلالها وأصدائها، وإنى لمغرمٌ بالقباب، بقدر ما تحتوينى، وتُطلعنى على استدارة الكون بقدر ما تفكٌّ أسرى وتَعْتقُ ما تبقى من وثاق. أويتُ إلى قبة الإمام الشافعى المصوغة من خشب عَطر الرائحة، قبة قايتباى، قبة برقوق، قبة مولانا وسيدنا الإمام الحسين. ولزمتُ قبة سيدى عمر بن الفارض المتقشفة، الزاهدة، فى إستانبول سمقتْ بى قبةُ الجامع الأزرق، وتحت قبة صغيرة مضمومة، مؤثرة فى جامع القرويين بفاس امتثلتُ وأصغيتُ.

تلك النوافذ العلوية، عند حدّ انتقال البناء من المربع إلى الدائرى، يغطيها زجاج ملون، معشّقٌ، يواجهُ الجهات الأربعَ الأصلية والفرعيةَ، داخل قبة ضريح قلاوون، ركنى المتينُ فى القاهرة العتيقة، فى كل ساعة للضوء درجةٌ وظلّ، تنفذُ الشمس من كُوّات مدغمة فى الجبس، فتحات لتمرير رسائل الكون السحيق.

الثالثةُ وسبعُ دقائقَ بعد الظهر إن صيفًا أو شتاء، لا أدرى سر إتقان التوقيت، فى الوقت عينه تظهر. رقرقةُ الضوءُ الخضراء على قمة العمود الأيمن، درجةٌ لا مثيل لها فى النبات. تجمع ما بين رواء

المزروعات وجلاء الماء ورهافة النسائم ومصادر البهجة وأبدية الرياح وصفاء السرائر، تمتزج الأشعةُ السارية بالزجاج الملون، تعبر كل ساعة فتحة مغايرة تتشكل بها.

الثالثة للأخضر.

لتلك البنية السمرقندية، المصوغة من نطفة الضوء، من تلاقح الأصفر بالأزرق بمقادير معلومة، من سر الشفق والفجر والتوق القديم. ظهورُهَا ناعمٌ، مثيرٌ للتطلع. جالبٌ للانشراح. إذ يقع بصرى عليه، أظنه ماءً مقطراً معلقًا، كأنه يؤدى إلى ألوان أخرى كلُّها عند حَدّ ما، شخصتُ متخذًا وضع الرضاع القديم.. تمامًا كما يأمن الطفل لحظةَ استقرار الحَلمَة المترعة وتمكنه مع سريان الدفء الحليبى.

لاهىَ بالطويلة أو القصيرة. دقيقةُ الخَصْر حتى ليظنّ الرائى أن ما بين نصفها العلوى والسفلى فراغ، باسمةٌ رغم حزن عينيها البادى، نظرتها نبوءة بتحقق الوعود القديمة. تكوينُها يبعث إلى الوعى ترتيب الزهور. وحضور ألوان ما بعد المطر، يغلب عليها الأخضر. وعندما يتحول النبات إلى ضوء يصبح سراً مستعصيًا. درجةٌ من الاخضرار تنفي الخضرة ذاتها، لا مثيل لها. رجراجة لا يمكن تعيينُها.

تابعتُ هفهفات ثيابها. عند دورانها، عند تمايلها المقتصد، عند تطلعها إلى حيث لا يمكن التعيين أو الإدراك. إذ تحركُ أصابعها إنما

تدل على حـواف الكون. وترسل أبلغ الإشـارات إلى مكامنَ فى الروح يعسرُ توصيفُها.

أنا فى مواجهتها غريب، عابرٌ لديارها، الخطابُ لا يتلقاه إلا المقيمُ، كيف يمكن الاستدلال على العابر. الراحل من مكان إلى آخر ومن لحظة إلى أخرى!

لم تلتق عيوننا إلا مقدارَ لحظات خاطفة، خلالها شبَّ التعلق واندلع الحنين، تفتقت بذرةُ النزوع. هكذا.. جرى ذلك التوحدُ الخاطف، النادر، الحاوى للدلالات كلها. لكنه جرى فى ظرف غير مُوات، ومن أسف أننى جُبلتُ على ردود الفعل البطيئة، المتمهلة. عندما تجد طريقها إلى النطق شفاهةً أو كتابةً يكون ذلك فى الفَوْت. الصرخةُ التى كان يجب اندلاعُها لحظةَ ولوجها عالمى انطلقْت مرات لكن على غيرمسمع منها وفى زمان غير الذى جمعنى بها.

بَسْطُ الذراعين، محاولةُ احتوائها وفنائها عندها تمتْ.. لكنْ حيثُ لا توجد، حيثُ لا تَمْثُل إلا فى أفقى.

قيامى، اتجاهى صوبها جرى، لكنْ بعدَ قطع مسافات وانقضاء أوقات وتبدّل حالات.

تساؤلاتى نَطَقْتُها ولكنْ على غير مسمَعها:

هل أنْت المقاماتُ والأنغامُ ذاتُها؟

هل تتصلُ أوتارُ الدنيا كلُّها بجسدك؟

هل تنبعُ الألحانُ منك أم من الآلات؟

كافةُ ما أردتُ طرحَهُ أفضيْتُ به لكنْ فى أوان مغاير.

نَذْرُ هجوعى، قُضىَ أمرى بعد عودتى إلى موطنى، كنت أستعيدها يوميًا فى لحظة رؤيتى لها ثم أفقدها. إلى أن أدركْتُ وهجَ الصلة بين كينونتها وذلك الضوء الرقراق، لذا لزمتُ القبةَ يوميًا. أجىء إليها فى وقت معلوم. إذ تَحلُّ الساعةُ السندسية، يبدأ البث الداخلى، فأخفُّ وأشفُّ، أشْخُصُ صابرًا حتى لا تُفْلتَ منى لحظة الاندلاع. أجتهد فى تَقَصّى ملامحهَا، وإذ تتحرك الرقرقةُ صوبى أسيلُ كَمَاء الورد، تنتفضُ مكوّناتى، أعرفُ لذة لا عهدَلى بها، يَسْعَى رقراقى صوبها، بفارق ضوئهَا إلىَّ، تندمجُ حروفُنَا وتعلقُ بالهواء..

بَلْبَلة..

لقيتُها فى مراكش.

جرى ذلك عندما نزلتُها للمرة الثالثة، سنة خمس وتسعين، ضيفًا على ودادية سيدى ابن سليمان الجزولى صاحب «دلائل الخيرات»، أما المناسبة فاحتفاليةٌ ثقافيةٌ، شعبيةٌ، دينيةٌ بسيدى أبى العباس السبتى، وكلاهما من السبعة الرجال، حماة المدينة وأركان فضاءاتها.

لم تكن زيارتاى السابقتان إلا عبوراً سريعًا، لم تدم إقامتى فى أىّ منهما إلا ليلتين، كنت عند حدها اللامرئى وإيقاعاتها الخفية، كنت عابراً، متفرجًا من قُرب بعيد، تمامًا مثل أى سائح، دائما أعى عدمَ تمكنى من لون بيوتها الأحمر الطوبى، وامتزاج الفضاء الصحراوى بذُرى جبال أطلس المكللة بالجليد. رغم إقامتى بها إلا أننى كنت بعيداً عن خباياها ونبضها وإيقاعات الحيوات بها. هذه المرة اختلفَ الأمر، إذ طال مُكثى، وبان علىّ سمتُ المقيم، مع أن زمنى محدودٌ، قليلٌ، لكنْ.. إذا عَمُقَتْ الصلاتُ وامتدتْ المودةُ واكتملَ النفوذُ

تيسرت الإحاطةُ، أما لُقيا الأنثى والتمكن منها فيحقق أقصى الدرجات، وبه تتضحُ المعرفةُ وتتم.

لَزِمَنى صَحْبى من اليقظة إلى النوم. نهاراتى وأمسياتى كلها معهم، منهم جعفر الكنسوسى، وحبيب السمرقندى، ومحمد بوسكسو، وبدوى الشيرازى، وأحمد التادلى، وحسُّون الإشبيلى، وسعيد الغَرْناطى، وحيّان القرطبى، ومولانا الشريف محمد بن سُلَيْطين. وغيرهم كثيرون ممن عرفونى ورافقونى، واسْتَأنَسْتُ بهم.

منذ وصولى كنت متحفزا، متأهبًا، متهيئًا. ذلك أن الرحيلَ يشْحذُ حواسّى، ويفككُ ما يقيدُنى، ويخففُ أحمالى، ومع كل شروع يغلبُ علىّ ترقبٌ وتوقعٌ، لا يَخْفتُ إلا عند عودتى إلى ديار إقامتى.

باستمرار أتأهب لاستقبال طَلْعة ينتجُ عنا طقٌّ الشرارة. اندلاعٌ صرتُ تواقًا إليه، أرجوه وأرمى إليه، ذلك أنه نادرٌ عندى، على امتداد عمرى لم يَلُحْ لى إلا مرات معدودات لا تتجاوزُ أصابعَ اليد الواحدة، ولا يكتمل اللهب إلا بوقود، وهذا يكون خارجَهُ وسَرْعانَ ما يذوبُ فيه. وإذ يَنْفذُ يصيرُ الأمرُ كلُّهُ إلى فناء.

هذا الوهج يفاجئنى بغتةً، في اللحظة والموضع الذى لا يمكن أن يخطر على بالى، ولا يسبقه أىُّ تشوّف. خلال أيامى تلك قابلت من يمكننى تسميتُهن بالسَّرابيات، ذلك أنهن ظهرن لى وكأنهن

المقاصد التى أبغيها، غير أن ذلك سرعان ما يختفى، لا يُسفرُ الأمرُ عن شىء.

راحت اللحظة الفارقة تدنو عصرَ اليوم السابق على خَتْم مقامى بمراكش. أمضى غدا إلى بيت صاحب حميم يقيمُ بمدينة أخرى. صغيرة، على حدود جبال أطلس الوسيط. خرجتُ عصراً من بيت الإمام السمرقندى خادم زاوية سيدى سليمان الجزولى، بصحبة ابنه حبيب وصاحبنَا وأخينَا جعفر قاصدين مدرسةَ ابن يوسف ـ عليه رحمة الله الواسعةُ ـ التى شملت كل شىء، بناءً يَنزُّ جمالا وعتاقةً ومُثْقلا بأنفاس الراحلين، فالخطى البعيدة، والكون الممتد، والتفانى فى الصنائع والدرس لا يمضى بلا أثر. بل يترك أصحابُه مَا يَسْتعصى إدراكُه بالحواس المتاحة، إنما يصل سعىُ الراحلين شحيحًا. غامضًا، وهذا ما يفرق بين البنايات الحديثة وتلك القديمة، كذلك المدن والمواضع الدارسَة. الأنفاسُ والخواطرُ والرؤى والأحلام لا تَفْنَى. إنما تبقى بشكل ما، تضفى رسوخًا ورصانة.

خُصّصَ ذلكَ العصرُ لنفر من الأصلاء المراكشيين، من أهل النكتة ورجال الطير، أما الأولُ فرواةٌ لنكات متوارثة. بعضُها معروفُ الرواة والمصدر، والآخرُ مجهولُ المنبع. ما لفت نظرى طرقُ الإلقاء وغرابةُ إيقاع اللفظ عندى. أما أهل الطير فلم ألتق بمثيل لهم خلال أسفارى، ولم أسمع من صحبى الذين بلغوا أنحاءً لم أعرفها. كما لا أذكرُ قراءةً لنص أخبَرَ بوجود مثيل لهم فى أى موضع آخرَ بالعالم.

منهم نفرٌ يتقنون أصواتَ الحسون، والزرزور، والكناريا. واليمام والحمام بأنواعه، لا يعرفونَ مفرداتها فقط إنما إيقاعاتها وأحوالها وعلامات حزنهَا أوبهجَتها أو غربتها عند بلوغها أرضًا لم تألفها أو أصوات وهنها عند الإعياء أو ألمها عند المرض أو الوقوع في الأسر، أو لحظة فقدان الإلف. أدهشني قدرتُهم على تحويل الحروف البشرية إلى مرادف لأصوات الطير. وهذا مما يطول شرحُهُ. وقد أفعَلُ.. لكن في موضع غير هذا.

منهم الأطباءُ المتخصصونَ، العارفون بأوجاع الطير وأعراض أمراضها وطرق مداواتها بالأدوية الطبيعية الناجعة. بل إنهم أخصائيون متمكنون من مداواة نفوسها المعتلة. إنما الطيرُ رقيقٌ، تتقلبُ أحوالُهُ من مكان آخر. من وقت إلى وقت.

لن أطيلَ.. ليس هذا قصدى، إنما أردتُ ذكْرَ ما سبقَ ظهورَها. الحقَّ أن الأشياء مترابطةٌ، متصلةٌ، كلٌّ منها مُؤَدّ إلى الآخر وإن اختلفتْ العناصرُ وتنافرتْ الطباعُ.

أعدَّ مجلسُ الطير في إيوان القبلة. حيثُ المحرابُ المؤطرُ بزخارفَ جصّية. تَنمنمَ اليابسُ وتحولَ الجمادُ إلى أطياف تستعصى على الإدراك.

صُفَّت المقاعدُ وجاءَ صانعٌ مراكشيٌ بقفص كبير، قبابٌ متواليةٌ مضفرةٌ من أسلاك مزخرفة، يعلوه سقفٌ محدبٌ من قرْميد أخضرَ،

يوحى بقعر مَشيد، لكنه أكبرُ من أن يتسعَ لطائر وأصغرُ من تخصيصه لإنسان.

بدأ توافد الجمع، جلوسهم، تطلعُهم وانتظارهُم. .

رأيتُها.

بدت فى مجال بصرى بغتةً، لم أدر. . هل قَدمتْ قبلى، أم دخَلَتْ من جهة لا أعرفها، ظهورها ألغى ما عداها، فيما بعد، عندما رُحتُ أسترجعُ لحظاتها وأرى فى ابتعادها ما لم أحطْ به. وقتَهَا أدركتُ أنها كانت تجلس بين اثنتين. لكلّ منهما خصوصيتهَا وتفردها، ربما لو رأيتُ إحداهن منفردةً لولّيتُ الوجهَ إليها. لكنْ. . مع مثولها يصعبُ تجاوزها إلى أخريات مهما بلغن من اكتمال الشأن.

بُلْبُليَّةُ الحضور، كونيةُ الجمال، مشرفةٌ على سائر المَشَاهد، شيرازيةُ الطلّة. بابليةُ العينين، قاهريةُ المدى، قرطبيةُ الضمة، سكندريةُ السريان، أرضية الغواية. مَجْمَعٌ للآفاق. تقعُد كأنها مُطلعةٌ، مراقبةٌ لحافة الدنيا، شاخصةٌ دائمًا.

فارعةٌ، فواحةٌ بنغم غامض نَفذَ إلى أقصى نقطة فى أغوارى، بدأ مع ظهورها فى دائرة بصرى ولم ينته حتى الآن. أحيانًا يَخْفُتُ، مرات يشتدُّ فيقلقلنى، لكنه ماثلٌ فى كافة الأحوال.

على الفور رفرفتُ، شَرَعتُ، بدأتُ حَوْمى ومحاولة دُنُوّى،

وجَّهتُ بصرى أو توجَّهَ بى، وعندما بدأ إصغاؤها مثلى إلى بُنيَّة مراكشية لطيفة، راحت تتلو مقاطعَ من «منطق الطير» لمولانا فريد الدين العطار، فقرة بالفارسية تتلوها ترجمةٌ عربية. هزاتُ رأسها، هيئةُ إصغائها، رفيف نظراتها، هذا كله شجعنى على سلوك هذا الدرب. بعد فراغى تقدمتُ منها غيرَ وَجل، خاليا تماما من ذلك التلعثم القديم، قصَرُ المدة المتاحة يبدلُ الخصالَ، ويَقوى ما يحتاجُ إليه المرءُ لا غير.

لا يمكن تعيين لونها أو نسبتُه إلى مرجع. إذ يقع على حدود الأحمر والبنى والسمرة والأصفر المُشعَّر بياقوتية شاحبة.

هل مجيئُهَا صدفةٌ؟ أم أنه قَصْدىٌّ؟ أم بلوغُ مَحَط فى رحلة السّرب؟ شفتاها تَمُتَّان إلى عالم الكناريا. كذا ملامُحها. لها عينا قُمْريَّة وتوثبُ يمامة.

شيعتُ رسائلى الخفيةَ عبر نظراتى المتقدة، اجتهدتُ فى إخفاء النية. أن يبدو سؤالى لها واستفسارى عن اسمها وعنوانها ونوعية دراستها ورقم هاتفها تلقائيًا لمن يرقبنا وذا معنى بالنسبة لها. إننى غريب. عابرٌ، والنزيل الذى أوشكتْ إقامتُهُ على التمام يجوز له بعضٌ مما لا يحلُّ للمقيم.

هدفى.. تعيينُهَا، الاطلاعُ على اسمها ومكانها، هكذا تبدأ الصلة.. لعل وعسى. مع تبليغهَا ما بدأ عندى إن أمكنَ ذلك. وقد

جرى الأمرُ كما تمنيتُ. بل . . فاق ما توقعتُ. وأحيانا يكون تحقق الأمرُ مفاجئا ومحبطًا لمن اعتادَ السعى الطويل ومواجهة الصعاب!

صباحَ اليوم التالى، قبل مغادرتى المدينة بساعتين أدرتُ قرص الهاتف، وعندما أتانى صوتُها تنديتُ، إذا كان لقائى بأهل الطير وأطبائه وتراجمته أثار دهشتى، فإن حومى حولها ومقاربتها لى أجّج عندى ما ظننْتُهُ خبَا مع تقدم العمر؛ أعنى اندفاعتى القديمة. إقلاعى ومحاولة اجتياز الحضور المادى المحسوس، وطَرْقَ سُبُلٍ شتى لإبلاغ رسائلى.

جاءنى صاحباى، جعفر الكنسوسى وحبيب السمرقندى إلى موضع إقامتى خارج المدينة، بيت جميل فى غابة النخيل. لملمت حاجاتى وتجولتُ ببصرى فى أنحاء المكان مردداً ذلك التساؤل الذى يبدأ عند مفارقتى: هل سأبْلُغُ ذلكَ الموضعَ مرة أخرى؟ غيرأن يقينا عندى بانتفاء إمكانية عودتى، لا أعرف صاحبَ البيت المحاط بحديقة فسيحة يتخللها نخيلٌ مثيرٌ للشجن والحنين، مازال المهندسُ الذى شيَّدَه يحتفظ بمفاتيحه وهو صاحبٌ عزيزٌ لجعفر. أما مالكُهُ فمقيمٌ هناك فى الرباط، يتردد أياما قصيرةً خلال أيام الشتاء الدافئة، سَمَحَ باستضافتى بعد أن اتصلوا به، وأخبروه بنزولى المدينة. أجهلُ عنوانَهُ، ولا أعرفُ الطريقَ المُوصلَة إليه. وسفرى إلى مراكش مرة أخرى قد يحدث وقد لا يتكرر، كيف أجىء مرة أخرى؟

احتويتُ بالبصر الحديقةَ الفسيحةَ. لونَ البيت الأحمر، مرتفعات أطلس المكللة بالثلوج كما تبدو من هنا. المدى، تموجات اليابسة وأصوات المكان الخاصة. قصدنا فندق المأمونية، أمامه تنتظرنى عربةٌ أرسلها صاحبى ساكن وادى زمّ، ينتظرنى فى بلدة تسمى «بنى جرير»، عنده أقضى ليلتين ثم أقلع عائدا إلى الوطن، فارقت السيارة فى ساحة الانتظار المواجهة للفندق، لحظة ملامستى الأرض أيقنت أنها «هنا»، ذات الإحساس الغائم الذى لا يمكن تعيينه. سبق وقوع بصرى عليها أول مرة، بمجرد عبورى الطريق رأيتها، تقف ممشوقة، تُشهر ألقها بجوار أصص الزهور، أندلسية التكوين.

نظرتها جانبية، صامتة، متطلعة، بالأمس كانت ترتدى قميصا وبنطلونًا دلاً على رشاقة معمارها، اليوم أراها فى رداء طويل. قريب من الجلباب لكنه غير فضفاض، يشى بتضاريسها ويشير إلى مقاماتها من بعيد. أشرتُ إليها مبتسمًا، قلتُ لجعفر:

«إنها النظَّام»

قدرت مفاجأته، لم أخبره، لم أبْد أى تمهيد لظهورها. لم أتيقن حضورها. أما «النظَّام» فهى الهيفاء، الحسناء، ابنة الشيخ الجليل الذى لقيه الشيخ الأكبر، وكانت باعثًا على نظم قصائد «ترجمان الأشواق» ثم وضع التفاسير التى حاول من خلالها أن يوضح.

فى وقفتها وطلتها تصريح، إنها تسْرى إلىّ بقدر سعيى إليها، ربما

اختلف الدافع، لكن التلاقى حتمىّ. فيما بعد استعدت معانى عديدة كلما مَثُلَ أمامى، تساؤل. دهشة، رجاء، غموض نبيل وسكينة لا تفارق ملامح الطيور. صافحتُها ، اقترحتُ عليها مصاحبتها إلى بيتها. هكذا لوحت لجعفر وهى بجوارى. تحدثت إليها بسرعة وباقتصاد، هزت رأسها قالت إنها لم تر بنى ملال وسمعت عن وادى زَمّ.

هكذا قصدنا بيتها فعلاً ولكن لنخبر شقيقتها الصغرى أنها ستغيبُ نهارين وليلة. إنهما مقيمتان فى مراكش. ظروف دراستهما اضطرتهما إلى ذلك. أما الأبُ والأمُ والأشقاء السبعة الآخرون فمنزلهم مدينة تطوان الشمالية.

بدت صامتةً، منزويةً، كأى طائر يتخلف عن السرب ويواجه فراغات لم يعتد سلوكها. كنت أستفسر من السائق عن أماكن نمر بها، ومدن صغيرة نعبرها بسرعة، ثم ألتفتُ فأغدقُ عليها حنوى واهتمامى وأخبئ حيرتى فلم يحدث أن تحقق ما قصدتُ إليه بسرعة كهذه.

تبدو مستسلمةً، منطوية على نفسها أكثر مما هى ساعية إلىّ، تتطلع إلى الطريق، إلى الأفق الرحب. الأراضى المزروعة بالحشائش الخضراء، بيوت قليلة متناثرة، إلى جبال نقترب منها بسرعة، إلى شوارع مدينة بنى ملال، إلى شلالات مياه هادرة تتدفق عبر

مستويات مختلفة، أصرّ السائق على مصاحبتنا إليها، طالنا رذاذ المياه، قالت:

«ما أغربَ ذلك»

لم أدر أى غرابة تعنى. عادت إلى صمتها، لكنها نطقت مرة أخرى عندما تكرر البرق يتبعه الرعد، قالت:

«هذا مخيف..»

طريق خال تمامًا، يصعد مرتفعات متوسطة وينزل برفق، ما من مركبة قادمة من الجهة المقابلة. وقتٌ يدنو من العصر، غير أن الضوء يخبو، لم يعد ممكنًا تحديدُ قرص الشمس. تتوالى شواظ البرق. ينصهر الفضاء، ماذا لو انقضت الصاعقة؟

سينتشر الخبر هكذا..

«هطلت أمس أمطار طوفانية، تخللتها رعود وبروق، أصابت الصاعقة سيارة خاصة على الطريق بين بنى ملال وأبى الجعد، وعثر بداخلها على ثلاث جثث متفحمة. السائق ورجل وامرأة..»

أبتسم فى مواجهة العاصفة. أن أقطع تلك المسافات ليضع البرق الوامض لجزء من الثانية حداً للماضى والحاضر والآتى، بصحبة هذه البنية التى لم أعرف عنها شيئًا بعد، دائما أتساءل عن النهاية وكيف؟ أين؟ متى؟ أخشى حلولها بعيداً عن ديارى. الاحتمال قائم خاصة أن

أسفارى تعددت والوجهات اختلفت، كافة الظروف وردت عليّ، عدا تلك العاصفة، وهذه البقاع، وتلك الرفقة، تكللت برعدة . . لم أر مطراً كهذا من قبل، عنفوان المحيط القريب يدركنا، ترى كيف واجه الأقدمون ظواهر الطبيعة تلك؟

أنتبه . . للحظات نسيت حضورها. غابت وهى لم تبدأ بعد، يلاحقنا القصف الكونى، أمد يدى إلى حواف أصابعها، تسحبها مذعورة، تلملم ذاتها، تنأى، ابتسم مطمئنا. لا تظهر علامة ودّ حتّى. بل تبدى حدة ما، يتغير لونها. لم تعد بشرتها تنتمى إلى تلك الحدود التى يتوالج عندها الأحمر بالبنى، بل ازدادت مساحة الأصفر، طفا أزرق غامق، قدرت تأثير ذلك بتغير الضوء وغموق الظلال وإرهاق المسافة. تُقْتُ إلى بيت، إلى سقف يؤوينا. ما خشيتُهُ تعطلُ السيارة وبقاؤنا فى العراء، أتحملُ واجبات عدة تجاهَهَا. أخيرا . . نقترب.

يقع بيت صاحبى فى الخلاء. على حافة واد منطلق حتى الأفق، يتخلله نُهير صغير. بدا البناء بتوحده وهوائى الأقمار الصناعية المستدير الضخم فوقه وكأنه محطة على طريق الأبدية.

لم يخف صاحبى إعجابه بجمالها. همس فى أذنى:

«عصفور . .»

لم أبد تعليقا أو دهشة لإدراكه نسبتها إلى عالم الطيور. بل إن

تسميتها بالبليلة أول ما خطر عندى لحظة إحاطتى بها بالبصر، ربما تأثرت بمجلس الطير فى إيوان القبلة بمدرسة ابن يوسف، لكن . . كيف ألم صاحبى؟

شغلت بتدبير أمرنا أمامه. بما لا يمس كرامتها أو يخدش حياءها، هو صديق قديم عرفته منذ سنوات تقارب العشر فى مدينة بولونيا الإيطالية، قابلته مرات فى القاهرة وباريس وفى مسقط رأسه بوادى زم بعد طول ابتعاد قسرى واغتراب لأمور عامة جرت فى الماضى لمح إلىّ ببعض منها، رجع ليبدأ مشروعات عديدة، منها مزرعة للنعام فى الصحراء. يربيها ويذبحها ليبيع لحومها إلى مطاعم متخصصة وليدفع بجلودها إلى مصنع ينتج الحقائب والأحذية النادرة. اشترى منجمًا للرخام، وسفنًا لصيد الأسماك من المحيط، لم أعرف مقدار ما عنده أو مصادره. لم أهتم، كنتُ أراه قريبًا منى بدرجة ما، وحيدا، حزنه كامن، محوره بنيةٌ هجرته فجأة وبدون مقدمات. رأيتها بصحبته فى مصر، ومازلت أذكر فوحها وطلّها ومشوقية قوامها. ألتمس له العذر لوجده عليها. وتلميحه الدائم بها . .

لم يهدأ الرعد، بل اشتد وضاقت الفواصل بين موجاته المتعاقبة، ولكن وجودنا داخل الدار بث طمأنينة وأذاب مخاوف الطريق والعراء. فى البداية خلت بنفسها داخل غرفة الضيوف بالطابق الأول، طرقت الباب، كانت تجلس عند حافة الفراش الوثير بعد أن سوت أمورها. استردت كثيراً من هيئتها التى رأيتها عليها أمس،

تحددت ملامحها أكثر . واتخذت شفتاها الوضع الأرق ، ملست على شعرها ، قلت كلمات عن المصادفة واللحظات الأولى وغرابة اللقاء ، وأكدت أن اقتراب كل منا ليس مغامرة أو صدفة ، من يصدق أن تلك الحجرة تجمعنا فى هذا المكان النائى والعاصفة على أشدها فى الخارج ؛ منذ أربع وعشرين ساعة لم يكن أحدنا يعرف الآخر ، لقاء مقدر . .

نظرت إلىّ مباشرة :

«حقًا»

ثم أشارت إلى الخارج :

«دار لا أعرفها . . »

سعيت إلى بث الطمأنينة بدون أن أبدو مفتعلا . الحق أننى لم أكن مشغولا بنيلها أو مضاجعتها ، ربما لأنها أقرب مما توقعت . لأن فارقا بين الصورة التى رأيتها على البعد وتلك الماثلة عن قرب . ربما لأننى فاشل فى إبداء تلك الاندفاعة القديمة ، ذلك التفجر المروع ، المثرى ، يتباعد أمره الآن ، وكلما توهمت وقوعه أتبين استحالة ذلك ، آخر عهدى بها فى آسيا الوسطى ، أثناء ترحالى بين بُخارَى وطشقند وسمرقند . ألمحت إلى قبس مما عرفته فى رسالتى عن الصبابة والوجد . فمن شاء . . عليه بمطالعة خلاصة أمرى هناك ، لكن . . يمكن القول والزمن مستمر فى دفعى بعيدا عن أيام فورتى ولوعى

ونزقي أن ذلك لم يتكرر. وأنني منذ تلك الفترة وأمري في ابتعاد وأصدائي إلى محو. ولعل ذلك بدء عين المفارقة، وهذا مما لا أفضل الخوض فيه الآن.

بَدلت ثيابي وهي مطرقة، ارتديت جلبابي المغربي الذي أفضله، خرجنا. تناولنا عشاءً مغربيًا دسمًا أعدته شقيقة صاحبي، أخبرني بعملها في المطبخ نهاراً كاملا بمعاونة خادمتين، هي تسعد بذلك، صفت صواني البصطيلة، وطاجن اللحم، ثم الكسكس بالحوت، لم نكن بمفردنا، إنما جاء صاحب من الناحية، ورجل أعمال إيطالي وصديقته ممن يعملون في مزرعة النعام، لم تكن شهيتي طيبة، كنت متعبا ربما لطول المسافة، بدأ عندي تثاقل ورغبة في القيء. شربنا الشاي الأخضر ثم مضينا إلى الصالة الكبيرة، حيث جهاز التليفزيون، لم أقدر على التركيز. كان الرعدُ مستمراً. قال صاحبي: إن السماء مثقلة وإن العاصفة ستستمر غدا، أخيراً.. اكتمل انفرادنا. المكان يؤطرنا، يحددنا، تنعزل اللحظات، مرورنا بالعاصفة يتحول إلى صور وكلمات نستعيدها، تمدد كلانا. تفصلنا مسافة مقدار شبرين. هكذا تبدو الأمور.

نطقت استفساراتي، أجابت بصدّ، توقعت البسط مع انفرادنا. بألفاظ ضنينة حدثتني عن أسرتها، عن صاحب لها في المشرق، أمير من أسرة حاكمة بدويلة خليجية، إنها تنتظره:

أين ومتى تعرفت به؟

لم تجب، خيل إليّ أنها قالت شيئا عن نفسها باعتبارها أميرة. فيما بعد استعدت ما كان وما قيل، أيقنت أنها تعرضت لخديعة. إن ثمة خَلَلاً رغم مظهرها الهادئ البادى، عندما مددتُ يدى، تراجعت نافرة. لفت جسدها بغطاء من الصوف. شعرها المحلول أنعم، أطول، قالت بحدة:

«لن يُمس جسدى»

انكمشت، تضاءل حجمها. ازدادت بُعداً، يثقلنى إعيائى. أدركتُ أنها موجودة وغير موجودة، أن حضورها مقلق. ممضّ، لم أستأنف. إنما تحركت إلى حافة الفراش ضاحكًا ضحكة قصيرة. لم أجبها عندما استفسرت عن السبب، كان دماغى مثقلا، وأنفاسى عثرَةً، رحت إلى النوم بسرعة رغم غرابة الوضعية. إلا أننى صحوتُ قرب الصبح، ظلامٌ ما زال. تطلعتُ إلى الساعة التى أضعها دائما على مقربة منى، كنتُ منتصبًا إلى حد الألم، برد لاسع..

الخامسة إلا الربع

ما هذا الصوت؟

شىء ما يرتطم بالأرض، يرتدّ، أتوجس، ذلك الحذر الذى يباغتنى عند الصحو وانفراد الليل بى، خاصة فى البعد، ألتفتُ

إليها، موضعها خال، أضغط زر المصباح. لا أثر لها. عدا رائحتها. لا يمكن أن أخطئها، الوسادة فى وضع مغاير، يتردد الصوت، أفارق الفراش، أحدد مكان صدوره. جهة النافذة، أزيح الستارة. أفاجأ بالنافذة مفتوحة، يتدفق هواء مُشْبَع بالبرودة، أسارع بإغلاقها، تنفلتُ الحمامة الغريبة إلى أرض الغرفة. تقفز مرتين. إذن.. هذا مصدر الصوت الغريب. ارتطام جسدها النحيل، الطرى، تحط يائسة. متطلعة، لا تبدى أى مقاومة، تتواجه نظراتنا. أنحنى حتى أجثو على راحتى.

تفرد الجناح الأيسر. تميل برأسها حتى تثبت نظرها الأيمن تجاهى. تمر لحظات، لا تصدر عنى أية بادرة، يتقلقل ركونها، يبقى الجناح مفرودا، منفرطا. فاقدًا القدرة، الآخر ململوم. مضموم، كأنه غيرموجود. إما جناحان وإلا.. فلا.

ماذا أفعل؟

تنفذ إلىّ النظرة المستسلمة، الجريحة، تلفتُّ حولى، فراغ الغرفة ورحيل الليل، والنهار المقبل، والوحدة.. لم يكن بوسعى إلا إبداء الحنو.

مركز

نشر فخذاها دفئًا إلى سائر الجهات، شملنى فاستنفَرَ ما يمتّ إلىّ، رأيتهما بعد أن بلغنى تضوعهما، قبل مشاهدتى وجهها والتملى من تنمنم ملامحها، جرى ذلك في القطار السريع الواصل بين مدريد وأشبيلية مرورًا بقرطبة.

متى جاءت؟

متى دخلت وتوسدت المقعد المجاور للمر؟

ربما عند التفاتي إلى الرصيف، أو لحظة إغماضى، كنت مرهقا لقصَر نومى، وصحوى مبكرا، قلة هجوعى أمرٌ أعانيه منذ سنوات، ربما.. بعد اجتيازى الأربعين، أو لتواتر الهموم وكثرة الانشغال!

دائما.. ثمة رغبة مؤجلة، تمنيتُ إغفاءة ولو قصيرة، يستحيل ذلك فى العربات أو الطائرات، يمكن ذلك فى القطارات. هكذا تهيأت، خاصة أن المقعد مريح، والفراغ المتاح فسيح، والتناسق بين درجات الألوان متناغم، لونان متجاوران، الأخضر المرتوى،

المضىء. والأصفر المشعّر بحمرة خفيفة ترسخه وتمكنه، أما الأبيض الشاهق، الحليبى فمحيط، يحف النوافذ العريضة، مع بدء التحرك المتمهل، الوثير، أرجأتُ إغماض عينىّ إلى ما بعد مفارقة القطار المدينة وانطلاقه عبر الخلاء، غير أن التفاتة غيرت وبدلت أموراً يطول شرحها، كيف. . كيف لم ألحظها؟

ترتدى سروالا قصيراً. ما بين حافته التى تنتهى أعلى الركبتين. وحتى قدميها المدسوستين فى حذاء رياضى خفيف. حام بصرى وتملّى من رواء التكوين وغزارته، محددٌ، مبرمٌ، مُدلٌ حاض. عالى القضَة. له ملمسُ التَّمر النادر للعين الدَّربَة. دفْلىٌّ النور. شفافٌ، كهرمانىٌّ الضوء، يمكنُ رؤيةُ النواة الراقدة، المدثّرة. لا ينبت إلا فى واحات معينة من شمال أفريقيا. درجةُ صفرته مذهلةٌ. سيَّالةٌ، تقعُ أصداءُ بشرتها على حواف عدة. لا يمكن القول: إنه ذهبىٌّ، أو صفراوىٌّ، لكنه بين بين، يأخذ من هذا كله. فيه لمعةُ الإبريز، ورقةُ الشمس عند الظهور بعد احتجاب وراءَ غيم، ونداوة البرتقال. مع قَبَس من تلألؤ الضوء المنساب بين فرجات الأغصان أو الملامس لظلال الأمواج. لزغبها تمايل سنابلَ القمح المتهيّئة للحصاد، تستعصى على توصيف دقيق. يستمد حضورَهُ وتأثيرَهُ من مصهر الشمس. حيث الطاقةُ الهائلةُ، المتفاعلةُ، الهادرةُ، تجعلُهُ متماسكًا، قويا، جاذبًا. حافظًا لدوران كوكبنا، باعثًا القدرة. من تلك النواة الملتهبة أحد أسباب ظهورنا. هذا ما أستوحيته من

قراءاتى لأهل الفيزياء والفلك، مما انتهوا إليه أو افترضوه أن نجمنا هذا فى منتصف عُمره، مضى خمسة مليارات من السنين ومثلُها باقيةٌ، لو لم يُخلق غيره فى هذه المدة لكفى!

انبهار امتزَجَ بحذر حتى لا أشطَّ. هذا حال جديد لم أعرفه، مخالفٌ لتوثبات السنين الزواهى، زمن الاندفاعات المفاجئة، والطقات المنفردة، والفورات الكاشفة، أما الآن فثمة تؤدة، غير أن اللمعة الأولى لم يهن بريقها وإن كلفتنى من أمرى جهدا.

سرى إلىَّ ماء دافق، لا يمكن تجرعه أو صبه، إنما يدرك من خلال ما يثيره من رواء. وترقرق المواد الحافظة للصلات بين الأطراف. بدأتُ أمعنُ مع أننى ما زلت فى بداية المراحل.

غزيران. متواطئان. . خاصة مع اعتلاء أحدهما للآخر، سال بصرى عليهما تمهل وركض وانحنى، لهما جهد المطلع، ونضارة الإشراف على بستان مثمر، وأمل الوعد بالتحصيل، وإيقاع الشطر الأول من مفتتح القصيد التالى.

كنتُ أتأهب لأقوم قاصداً العربة الأخرى وعند العودة أتملى وأتمكن، غير أنها فاجأتنى بقومة مباغتة. تلفتتْ حولها، شهقتْ أمامى، عمارة أنثوية. ألمت بالسكون الذى يتخلل لحظتين. والفراغ المجسد للعلاقة بين الكتلة والأخرى، صلة اللون باللون ولماذا يتضاد هذا مع ذاك.

لم تكن قصيرة، ولا يمكن القول إنها طويلة أو حتى وسط، طلتها. وضعية رأسها، يوحيان بإطار غير مدرك. يتحرك معها وبها. جليلة النظرة. شهيرة الطلعة، علوية السمت. مشهرة الصدر. أما أصابع يديها فإشارات دالة.

عمارةٌ منمنمة، بقدر ما توحى به من رقة، بقدر ما تتضمن من صلابة. شفتاها مضمومتان لكنهما إعلان وبشارة، تلفُّتُها حولها نتيجةُ ضجر أو فضول أو بتأثير خفىّ لاهتمامى الناشب المندلع.

بصتُها الجانبية أتتْ إلىّ باليمام. ليست يمامةً. وجهُها يمتُّ بشكل ما إلى الطيور، لكنها من الجنس كله، أما تحديد النوع فصعب، وعر، استدعيت كافة ما أعرفه من أسماء الأنواع المختلفة. الورشان. الكناريا، البلابل، الزرازير، العصافير؟! عندما قابلتُ بُنَيَّةَ مراكش، بَرَقَ وعيى على الفور بلفظ واحد «بُلْبُلة»، غير أن هذه الضوئية حيرتنى، فريدة بالفعل، لا أقول ذلك لأنها فى مجالى الآن. الغالب على المرء تقليل شأن ما مضى بالقياس إلى الماثل بالفعل، خاصة عند تعلق الأمر بالأنثى، غير أننى أستعيد من عرفت، أجتهد فى المقارنة بمن رأيت. فلا أجد لها مثيلا، ولا أقدر على التحديد، إنها منزلة جديدة فى تراثى.

ظهورها مترفق، هادئ السريان رغم تدملج المحسوسات مع اكتناز الفتنة وفيض الغواية، أثارت عندى هدهدة، ورغبة فى

الإيواء إلى العش. إلى الكنّة، والحديث هادئ النبرة، والإصغاء على مهل، مع الإيماءات الباعثة، والنظرات المخمسة، من قبل. . كان ظهور مثلها فى مجالى كفيلا بإثارة كوامنى. ويعث الرجفة، وبث الزلزلة.

دارت حول نفسها، فأيقنت أنها تلامس الأرض بأطراف أناملها، أيضًا. . تمكنت من معالمها الخلفية، وأمسكتُ أنفاسى تحسبًا لذلك الاتساق المفرد بين استدارتين محكمتين، وبروزين مباركين. صدرها وعجزها. إفراط مبتوت واكتفاء عجب!

خاطبتها بالنظر وسائر الحواس، ما خَفِىَ منها وما ظهر عدا النطق، تاليا ألفاظ المناجاة والمناغاة القصوى. وما لا أقدر على البوح به. فما أغرب أمرى. وما أكثر انطوائى على كثير لم أقله، كتمته ولم أعلنه، ولو جرى القياس بين ما بُحت به وما حُشْتُه لكان الفارق شاسعًا، رغم كل ما قلته وما دونته، تماما كالصلة بين القطرة والمحيط.

آه. . لو أن شجرة ألفاظى أينعت وأظهرت مكنونها، غير أن حال الصمت غلب، والكتمان طغى، وها هى الرحلة موشكة على البلوغ ولم أتفتح قط.

لزمتها بنظرى، لم أحدْ. . أحيانا أتسلل بالبصة، لكننى الآن راغب فى توصيل بريدى مفضوضًا. مشهراً، الوقت مسلول، والحدّ

دان. تُلامس خَصْرَها بأطراف أصابعها، تماما كما تقفُ. لها لحظةُ نضج الثمرة، تلينُ، ترقُّ، يبلغُ فوحُها السكَّرى مداه.

تجاوزت العشرين، المؤكد أنها دون الثلاثين، ذات صلة بالحياة الجامعية، دراساتها علُيا، نظارتها رقيقة الحواف. ذهبية، تطلعتُ طويلا إلى لوحات معلقة. وتماثيل منحوتة. وصفحات مطبوعة، وشاشات مختلفة، وارتادت مسارحَ فى مدن كبيرة وأخرى صغيرة.

تواجهنى بأوضاع مختلفة، كأنها أدركتْ. حاولتُ الإطاحة مع التحول، غير أن فخذيها دعامتان، منهما يبدأ التكوين، لهما المبادرة والتمهيد، لغزارة ما توالى علىّ. وليتُ وجهى إلى النافذة لأتمكن من الاستيعاب. أشجار، تلال، قوى صغيرة. بيوت مفردة، أفراد قلائل، عربات، طيور، أحجار متناثرة، كل شئ يتدفق متراجعا إلى الخلف..

من خطا هناك؟

من تطلع إلى الأزمنة الآتية؟ إلى المنقضية؟ إلى السماء الصريحة، الصحو، لا تدركنى غربة عند النظر إليها. ثمة ما ينتمى إلىّ هنا رغم تغير الأوقات، والقوم. وجود خفى لم ينته، بل إن هذه البنية ذات الغصن الرطيب مألوفة عندى، كأنى طالعت أوصافها فى أحد مصادر الزمن الأول، حاولْتُ استعادة أبيات الشعر العتيق التى تصف مباشرة

شهباء متماثلة. غير أن ذاكرتى تحتفظ بجوهر المعانى، لا تقيد حرفية النصوص.

أنثنى إليها، إلى مدارها. أباغت، تتطلع نحوى، تتداخلُ نظراتنا لحيظات، بصاتٌ مارقة، غير أنها نافذة، مصائر تتحددُ عبرها، جرى لى خلالها أمورٌ شتى سأذكرها فى موضعها. أسدلتُ القناع القديمَ، طالما أجْهَضُ وأحْبَط.

واجَهتُها بالدهشة، كأننى مباغَت بلحظها. أشاحتْ بعد أن لاحت وشيجةٌ، تساقَطَ داخلى بردٌ. أى فرصة أفلتتْ؟ لُمتُ نفسى. لماذا لم أبتسمْ؟ لماذا لم أظهرْ الود؟. فلأحاولْ استنفار ما تبدَّد، ما يساعدنى على التمكن.

هكذات.. تهيأتُ من جديد عندما قمت لأتناول حقيبتى الصغيرة. السرعة أقل. مذيع داخلى يعلن بالأسبانية والإنجليزية بلوغ قرطبة. التماس مع المدن للمرة الأولى باعث على متعة ورؤى، يصاحبه تأهب وانتفاض كوامن، تماما مثل اكتشاف أنثى للمرة الأولى.

أمد يدى متجاوزا رهافتها اليمامية. تلتفتُ، أبتسم، تجاوبنى، تسرى عندى البشارة، تزهزهنى شقرتها، لعلى أندمج بتكوينها ويتعطر داخلى برحيقها. أدفع الباب إلى آخر المدى. تتقدمنى.

رصيفٌ فسيحٌ، محطة معدنية الحضور، قضبانٌ سوداء، أسلاك

كهرباء، سقف محدَّب، سلالم متحركة، لا ألقى أدنى إشارة إلى نزولى قرطبة. للاسم علاقة بالمكان أو الإنسان. هذا ما شرحته فى موضع آخر. أين القرطبة إذن؟

لم أرَ بشائرها إلا فيما وصلنى من تلك البنية التى تصل ما بين الإنس والطيور، تجاوزًا. نَسَبْتُها إلى اليمام، عند طلوعها الدرج توقعت انفصالها وتحليقها، تذكرت صاحبا لى فى بغداد تعرّفْت إليه عند إقامتى بها زمنًا لا أدرى كيف أعده أو أحصيه إذ يرتبط بأغرب ما مرّ بى. ولذلك أرجأته إلى آخر هذا الدفتر. صاحبى هذا كان اسمه محمد القيسى، من أهل الفن والطرب، ذاع صيتُهُ فى التمثيل، واقتناء الأشرطة القديمة، كان خبيرا بالمقامات والأنغام والأصوات، كافة ما يصدرُ عن البشر أو الحيوان أو الطيور أو تجليات الطبيعة، من مطر ورعد وبرق ونزول ثلوج، وتدحرج صخور، وخرير مياه. واحتراق شهب، وكان يكرر لكل من يعرفه أن أجمل وأعظم صوتين عرفهما، أم كلثوم ومحمد القبنجى بعد تقاعده، وكفه عن الظهور فى التليفزيون، أرسى حلمه فى مقهى، أقنع المسئولين فى أمانة العاصمة بإنشاء مقهى على الطراز القديم ليحفظ معالم يهددها الاندثار، الأرائك الخشبية المستطيلة، النرجيلات البصراوية، البغدادية، ذات الرشاقة الانسيابية، والتنباك غزير الرائحة، طاسات المياه النحاسية بدلا من الأكواب، علق إلى الجدران لوحات لأشهر

المطربين القدامى، من مصريين وعراقيين وشوام، وجمع عشرات المواقد القديمة، وأوانى غلى الشاى، وإعداد القهوة وشراب الليمون الحامض، وسماورات روسية من القرن الماضى، وطيور شتى من كل نوع اثنان، ذكر وأنثى، فوق منضدة مستديرة. يتوسط الممر المؤدى إلى مدخل المقهى المنمنم، قفص مفضض، فسيح، يسكنه البلبل العراقى وأنثاه، حكى لى محمد القيسى عنهما فقال إن صوته من أعذب ما سمع، غير أن ما يميزه وما ينفرد به طريقته فى الجماع. إذ ينطلق إلى أعلى مرفرفًا، مزهواً وفى مواجهته أنثاه، وإذ يبلغان المدى، يلتصقان فى توالج حميم، دافىء، محلق، متزايد ويدوم ذلك مقداراً.

أين؟

كيف؟

أى احتمال؟

منذ لحيظات كانت أمامى فوق السلم الكهربائى، تتقدمنى، تعلونى بدرجتين، كافة معالمها الخلفية بمتناول بصرى، أنقشها فى ذاكرتى، أتملّى، عند بلوغنا المخرج وقفت تتطلع إلى لوحة المواعيد. خشيت سوء الفهم. فضلت الوقوف على بعد خطوتين، إنه الخجل القديم. واستكانتى لترجيع سنبلها. يتدفق العابرون. يمكننى تحديد اللحظة الفاصلة، بعد أن حَجَبَها عنى مرور شابة ممشوقة، صاريّةٌ

القوام، تحمل حقيبةً على ظهرها، عبورُها صَاحَبَ اختفاءَ صاحبتي، خرَجَتْ من مجال بصري.

هرعتُ غربًا، انثنيتُ شرقًا. تطلعتُ إلى الدرج النازل، إلى المخرج، إلى من ينتظرون عربات الأجرة، حتى وصلت إلى الحدّ الذي يوقن فيه المرء من عبث المداومة.

وقفتُ خائبًا، عثَرَ الحظ، وقتي قصيرٌ، مؤطَّر بمدة مجرد ساعات، سائق ذو شارب كث:

«الموسكيتا..»

أومأ، فتحتُ البابُ الخلفي، في مصر أجلس بجوار السائق، هنا أحرص على مسافة حاجزة، إني غريب، ولعل حذري يمنع أمرًا. ما بين ندمي على تبديد الفرصة المهدرة في القطار، واحتوائي المدينة، قطعتُ المسافة، بلغتُ نهاية الطريق الضيق، من هنا تبدو الأسوار الكهرمانية، من المحطة إلى حيث أقف مدينة حديثة، بيوتها متشابهة، نوافذها متراصة، لا تصرح بسمة. ولا تفضي بملمح، لكن.. بمجرد ظهورهذا الجزء الصغير من السور القديم تفتقت معان، وتمددتْ أبعاد.

ترى.. أي نقطة من المدينة بلغتُ الآن؟

أين تخطو؟

ماذا ترى؟

إلى من تتحدث؟

أستعيد ملامحها فأرى ما لم أطلع عليه وقت تحديقى إليها. طفولة ملامحها وصفاء عينيها عبر المنظار رائق الشفافية، شمخة عنقها، تيُولبية شفتيها.

أين هى الآن.. أين؟

مع تقدم خطاى تزداد المساحة المرئية من سور المسجد، أتمهل.. أعى تعاقب التعابير على ملامحى. ذلك أني آثرت المجيء منفردا. حتى أصدر من رسائلى إلى البناء ما أشاء، وأناغى الأحجار، وأخاطب النقوش، لعل وعسى.

ذلك حد السور الغربى، مرتفع، أدركه فى مجمله، غير أن إشراقة مفاجئة تستدعى لحظة مقاربة شبيهة، وهنا لا بد من تأنّ وفحص لما أعنى.

للمعمار شأن

من منن البـارى علىّ، تنقلى وأسـفـارى. وقـد بدأتْ قـبل تمام وفادتى إلى الحياة الدنيا، عندما سافرتْ أمى من القاهرة إلى جهينة وأنا بعدُ جنين أتكون وأكتمل فى رحمها. وهذا ما صرت إليه، فلم يكن تمامى إلا مع تعدد مرات رحيلى، وهذا موضوع يطول الحديث فيه، له محل مغاير، فيه تفصيل كثير، يمكن مطالعتُهُ فى دفتر الأسفار ودفتر «دنا فتدلى» الذى خصصته لترحالى بالقطارات. عند توقفى هنا أوهناك، أسعى دائما إلى المعمار، إنه آخر ما يبقى من الإنسان، يتحلل المأكل، والملبس، وتندثر الملامح، تمضى إلى عدم. ويبقى النحتُ، والأسسُ، والعلامات الدالة، تعقبتُ الآثار الخفية، والسمات الشاردة من هنا إلى هناك، وقفتُ مرات فى سمرقند، فى بُخارى، فى صحراء جوبى، فى بغداد، فى دمشق، وتدثرتُ بظلال السلطان أحمد والسليمانية، واحتوتنى القباب. والمداخل المؤدية لحظات اجتيازها وبدء النقلات، فى مراكش وفاس ومدينة تونس. والقيروان، أما مُرتكَزى ومرجعى فذلك الموروث القاهرى، منه أبدأ وإليه أرجعُ. عندما نزلتُ مدينة موريليا ـ سيأتى ذكر ما جرى لى فيها ـ

لاحظتُ الأقواس والحنيات، والحدائق الداخلية، حمل الأسبان المهاجرون تقاليد العمارة العربية الأندلسية، جرى تلاقُحٌ مع العمارة الهندية القديمة فأثمر حضورا خاصًا وفريدًا، وكل من تميز تفرد، وبقدر إمعانى البصرَ فى العناصر المشتركة، بقدرمحاولتى تجسيدَ الانتقال والهجرات والمضى من مكان إلى آخر، من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة ومن معلوم إلى مجهول، يحوى الإنسانُ ما لا يعى تفصيله أو جملته. ثم يجىء من ينتمى إلى زمن آخر بعد اكتمال الدثور. وتحقق الفناء لمن رحلوا. ونقلوا وشيدوا أو تركوا أصداء أنفاسهم على الجدران، أو أبواب المقابر والمعابد، تنجلى بعض الحقائق، والخبايا، لكن، يظل ما يستعصى دائما على الكشف، وبقدر عمر الخبيئة يكون انتقالها من زمن إلى آخر. . هكذا.

عندما رأيتُ جدار جامع قرطبة رصدتُ فيه جدار جامع القيروان فى ديار تونس الخضراء، فى القيروان البدايةُ، وفى قرطبة ذروةُ الرحلة والاستيعاب، هكذا تمتدُّ الوشيجةُ تلوَ الأخرى، وتتصل الأسباب.

زمنَ البناء فى القيروان، وزمنَ البناء فى قرطبة، أين كان أجدادُها، وأين كان أجدادى؟

مع اقترابى أشرفُ على أنفاس الذاهبين وإبداع المجهولين، ونداءات خفية منبعثة من فسيفساء دقيقة، ونوافذَ كهمزة الوصل بين خارج وداخل.

إنى على شفا

ألملم كافة ما مررتُ به من لحظات مقاربة، ما يسبق عبور الحدود الفاصلة، وبداية لوآح المراسى، عاينتُها عمرى كله، عند اقترابى من بدايات المدن التى أبلغها أو أنزلها أول مرة، كذا قراءة الصحف الأولى فى كتاب أجهل مضمونه ولم يسبق وقوفى على محتواه. تماما كشُروعى فى تحسس آفاق أنثى تمهيدا للتوالج والتكوكب بين المدارات، لحظات الاقتراب تلك من أحلى ما عرفتُ، إنها جوهرٌ، وما يليها ترديدٌ، إنها مجملٌ وما يتبعُها تفصيل.

أواجه البناء.

يداى وراء ظهرى متلامستان، حقا.. مهما أطلت، مهما ألممتُ بالقراءة والتدوين، فلا شىء يماثل المعاينة والمشاهدة، أومئ.. مردداً السلام على القوم، ماتزال بقايا حضورهم ساعية، ماثلة.. فسيفساء دقيقة، ملونة، أبواب مغلقة، حنيات معلقة، أمضى بجوار الجدار الممتد، يستعرضنى أو أستعرضه، أحتويه ويأخذُ منى مقداراً. صفرة الأحجار العتيقة أعاينها بترو، تمتزج عندى بما خلّفه إبريز جسدها الدافئ، الذى بدأتُ اعتاد الاتكاء عليه، تتوالى الأبواب الموصدة عبر البناء الذى يحدد المساحة ويضع شكلا للتكوين، أبلغ الطرف الشمالى حيث المنارة القصية..

باب العفو

للوصول مراحل، قَطعها متدرجةً يؤهل ويمهد، يساعد ولايوهن، البناء المضموم، الحاوى، لايسفر عن مكنونه دفعة واحدة، لابد من مدارجَ، وجهد يُبْذَلْ، لابد للعمارة من مدخل، وإلا كانتْ صماء، لا تؤدى إلى غاية، وما من مدخل بدون ولوج مؤدّ، عبور الفرج مُوصل للحياة، وكلّ دخول فيه نقصان يفضى إلى زيادة، ما من عمارة جامدة أو إنسية ارتبطتُ بها إلا لقيتُ فيها ذلك. إيقاعُ الجسد قائمٌ فى المادة الوعرة، المصوغة، بوابةٌ ثم دهليزٌ فصحن مفض إلى مستقر أو مستودع، الممر الفرعونى القديم، الضيق المؤدى إلى السعة، إلى اللاتناهى، جسر العبور من العادى إلى المقدس، الرحم المكنون حيث مدفن البذرة ومنبتها، ما بين عمارة الجسد وعمارة المعبد تنقلتُ مدفوعًا بطاعتى ورغبتى فى التجاوز أيضا.

برج المئذنة فى الجانب الشمالى، شقرة الجدران بشارة ظهورها مرة أخرى، كنتُ شفيفًا، متدفقًا رغم إرهاقى، مستَنْفراً بعض كوامن الزمن الأول، حتى الآن لا أدرى.. هل جرى ذلك بتأثير رؤيتى لها وتعلقى العابر بها، الخاطف، أم.. لبلوغى هذا الموضعَ الذى طالعتُ

صوره وقرأتُ كل نصّ متاح حوله، كل المعاينة تتحول إلى صور، إلى ما يصعب تثبيته، أو الإمعان فيه.

أتوقف فى الصحن المكشوف، يغمرنى عبير أشجار البرتقال، ثمة شىء ينتظرنى.. لا أدرى كنهه؟! لكن طوافى حول غموضه يوحى ويبهج، يثير الكوامن ويبث الوعود.

هنا، فى موضع محدد قامت ميضَأة، أوشك على رؤية تقاطر القوم وانحنائهم وكشف المرافق والسواعد والأقدام، أصداء خرير القطَرَات، طقوس التطهر قبل القدوم.

تلك الأشجار، النخلات، ليتنى ألمّ بأنسابها، بجذور سلالاتها حتى أقف على النشأة الأولى. أقف فى الفراغ متطلعًا، محاولا تثبيتَ الموجودات فى أعماق الذاكرة، لا أملك من أمرها شيئًا، لا أدرى لماذا يبقى هذا، ولماذا يُمحى ذاك؟، غير أن ما يُفْلتُ خلال الأعوام الأخيرة بلا حصر، ما تحملتُه كثيرٌ، عند حدّ معين يبدأ المحو.

أتطلع متمهلا، إلى الزوايا، الأركان، إلى الكتابات العربية المنقوشة فوق الحجارة، لا أراها فى آنيتها، إنما فى حضورها المستمر، منذ أن كانت معانىَ فى أذهان الفعلة، الحذقة، قبل شروعهم فى التخطيط والنقش، لم يكن إقدامهم مجرد عمل مجرد، إنما صلاة، ترتيلا.

هذا شأنى كلما واجهتُ نصًا عتيقًا، سواء كان حروفًا هيروغليفية

أو قبطية، آشورية، بابلية، إغريقية، سومرية، مسمارية، سريانية، عبرية، لاتينية، صينية، أوردية، أو إشارات غامضة خرجت من أناملَ سرت فيها الحياة يومًا، أرقب الخطوط والأبعاد وأحاول عبور محدوديتى.

أسدد البصر لأقرأ. .

«أمر عبْدُ الله عبدالرحمن أميرُ المؤمنينَ الناصرُ لدين الله أطالَ الله بقاءه ببنيان هذا الوجْه وإحكام إتقانه تعظيمًا لشعائر الله ومحافظةً على حُرَم بيوته التى أذنَ اللهُ أن تُرفعَ ويُذْكَر فيها اسمُهُ. . »

إلى أعلى كتابةٌ، ربما باللاتينية، بالإسبانية، لا أعرفُ، لكننى أفهمُ إضافات المنتصرينَ لتأكيد حوزتهم وهيمنتهم. كيف أفلتت تلك الحروف العربية؟ كيف تجاوزتْ التعصبَ واندفاعةَ الغباوة؟ ليس الخطوط فحسب. إنما هذا البناءُ كلُّه؟

يجب أن أمضى إلى أقصى الجانب الشمالى حيث البابُ المفتوحُ للزائرين، لا أعرف اسمهُ، عنده يقف الحراس. بابُ النخيل مغلقٌ، موصدٌ، ألمحُ طابوراً منتظما أمامَ مكتب صغير لبطاقات الزيارة.

هنا. . يوشك التهيؤ على الاكتمال، يبدأ الإقدام تجاه صميم المكان، أصغى إلى حركة أبى فجرا، تدفق صنبور المياه. خروجه، إغلاقه البابَ بحذر خشية أن يوقظنا، ابتعاد خطواته فى الحارة،

تلاشيها، باتجاه مسجد مولانا وسيدنا الإمام الحسين، أكاد أصغى إليها هنا فى قرطبة، بينما الضوء يفد علىَّ بلا انقطاع.

ضوء صريح، يحتوى حركتى منذ شروعى، درجاتُه مختلفة، لا يرصدها إلا المدققُ المحققُ، فى محطة القطار، داخل المركبة، وكان جسدها الكهرمانى يضاد ما يغمره بضوء ناعم، وثير، مهدئ للمزعجات. أما الضوء القرطبى الذى يلف المدينة ويكشف أبعادها فمُغاير لكافة ما عهدت، غير أن مويجاته فى الصحن المكشوف ذات طبيعة متمهلة، تحتوينى، تبصّرنى بدقائق الأمور، بمعارفَ لم أكن مُلمّا بشىء منها قبل بلوغى المكان واللحظة.

إنه الضوء

يجب أن أتهيأ به، أن أتطهر وأتدثر، هكذا بدأت أتوضأ بالنور، ليس ذلك ما أبصر به ولا أراه، إنه القادم إلىَّ، المنبعث منى، المبدد كل عتمة، البالغ كل فجّ..

باب النخيل

ثمة ما يؤجّجُ حنيني ويخضعني ويلزُمني الامتثال، من ذلك النخيلُ وهديلُ اليمام وصفيرُ القاطرات البخارية وما يصلُ العصرَ بالمغرب، وسائرُ الروائح التي سكنت حواسي، وهواجمُ الخواطر الوافدة من منابعَ قصية مجهولة، لكلّ مفردة أسبابُها، يصعبُ تفسيرُها في هذا التدوين، أما إذا ما لأتني الظروف فربما أفرد دفتراً للحنين.. لعل وعسى!

النخيل عندي له الصدارة، والمنزلة والسطوة والتطمين، أمره عندي قديم، لم أتوقف عند الباب المغلق، لم أسأل عن سبب قَصْده، ما تعلقتُ به اسمُه، أحيانا يطغى على الشيء المحسوس، بل يحدد هويته وملامحه، عندما أستعيد بعض من عرفت أو حاولتُ وصلهن، أجد أن الاسم يضفي خصوصية لا أقدر على تحديد ملامحها، ثريا مثلاً كانت ستكتسب صفات أخرى لو أن اسمها مغاير. كذلك سعاد ومديحة. سعاد؟.. لا يمكن أن تكون إلا سعاد. إنها الحروف والدلالة والمعنى كله. هذا بالنسبة لكل من

عرفتهنَّ أو اكتفيتُ منهن بالنظر، أحيانا أتوقف عند من أجهلها ولا أعرفها، أطلق عليها اسمًا من عندى، ربما تكتمل المعرفة فأجد التطابق، أما إذا وقع الاختلاف فيظل الاسم الذى أسبغتُهُ طاغيًا، مهيمنًا على ذاكرتى . .

النخيل . .

أتمهل أمامه، أتطلع صوب الطابور، رجال أمن، سراويل داكنة، أسلحة بادية، أبطئ خطاى . . هكذا شأنى، قبل كل كشف . ما يسبق التحادى بمكان أو لحظة أو . . أنثى، دائمًا أتمهل السعى إلى بلوغ الغاية، هذا أمتع، أما نيلها فيعنى التلاشى ! لذلك أوثر التوقع إلا فى المكاره، على أى حال المرء قُلّب .

اعتبرتُ اجتياز الصحن المكشوف بمثابة نقلة، بعد أن دفعتُ مقابل البطاقة، ألقيتُ نظرة جامعة، الصحن، البرج، الأشجار، الجموع، جنسيات شتى، يرفع أدلاء الأفواج لافتات صغيرة، لكننى مفرد، صلتى مغايرة . أنتمى إلى النخيل الذى لم يعد، كأنى مالك بيت جاء يتفقده بعد إقامة غيره به، لو أنها بصحبتى لأفضيت، لكم بدت منمنمة، صريحة الطلع، شديدة الغواية، أمومية الحض، مرتوية، بهية الصدر . منها زهوُ اليمامة بعد الفراغ من الحب، الرفرفة . التيه

على ما عداه، الطيران عاليا، فرحًا وزقزقة، أما ضوءُ بشرتها المُصْحبُ فألغى ما عداها. أحاول عبثا استعادة ملمح من أي أنثى، وما أكثرهن ذلك اليوم في الصحن المكشوف، في المُغَطّى. لكنني لا أقدر، أجوس بعيني، عندي يقينٌ خفيٌ أنها مطّلعَةٌ، مُلمَّةٌ، ترقبني من موضع ما. أتهيأ لاجتياز المدخل، غير أنني أتوقفُ مُباغَتًا، كأنها النقلة الأولى في مسيرتي المُضْنيَة، إنَّها المواجهةُ. .

أسِنَةُ الحَجَر

ما بين المقيم والعابر

مابين السجين المرْغم، والزائر

مـا بين الأصل والظل، مـا بين المنبت والفرع، مـا بين لحظة فـانيـة وأخرى ساعية . . جرى اللقاء .

رغم أننى قرأت العديد من الكتب، وشاهدتُ صوراً شتى إلا أن بصرى فوجىء، وكان جلُّ جهدى استيعاب ما تحويه ذاكرة الفراغ . فى الصحن البرتقالى المكشوف ينهمر ضوء ناصع . .

فى الداخل ضوء من ظلال متجاورة .

أعمدة . .

بالتحديد عمودان، يعلوهما قوس على هيئة حدوة فرس، أبيض، أحمر، تتبادل الحجارة المعلقة اللونين، ملمح إنسانى فيهما، يتطلعان نحوى بحذر وخشية وأسى . إنهما مقدمة الكون المتوارى، أرجفنى مرآهما، واتتنى لحيظة نائية . .

عندما داهموا بيتنا ذات فجر أكتوبرى، سنة ست وستين . بعد التفتيش اقتادنى ثلاثة أشداء، يرتدون الملابس المدنية، ضابط وجنديان، عربة رمادية، قديمة الطراز، سلكتْ الطريق المحاذى للنيل حتى طرة، ثم اتجهت شرقًا، عبرت حاجزًا يحرسه جُند مدجج، ونفقًا ومضت بحذاء معسكرات جيش وشرطة، وأرض غير ممهدة، إلى أن توقفنا أمام بيت كبير يتخلله آخر صغير، مكتب المأمور إلى اليمين، مكاتب الإدارة إلى اليسار، فى المواجهة بوابة تتخللها قضبان حديدية، عبرها رأيت البعض يرتدون ملابس المعتقل البيضاء المائلة إلى الصفرة، يتطلعون بحذر وفضول إلى القادمين من بعيد، من عالم جَدَّتْ صلتهم به، لحظة وصولى كنت عندهم موضوعًا للفضول، للتساؤل، حتى هذه اللحظة كنت أمت بشكل ما، بدرجة ما إلى العالم الخارجى، فمازلت على العتبة .

أقف مترددًا، تتراوح النظرات منى إلى الأعمدة، أتلقى ذلك الفضول الأبكم، الدال، أغمض عينىّ، أفتحهما، أفهم ما يرد إلىّ وأرسل بعضًا من إشاراتى، فما بينى وبين المكان وزمانه مغاير .

أخطو فوق أرض أجهل شخوص من عبروها قبلى، لكننى أرصد ما تبقى لعل وعسى، غير أننى بمجرد اجتياز المدخل أواجه صمت الأعمدة الضاجّ بالحنين، أنتبه إلى بدء سفرى عبر درجات الضوء وأطواره المتقلبة . . إنها ذاكرة الضوء ومراحله منذ وجود الومضة الأولى .

مع تمام ولوجى بدأ استسلامى الهادئ لذلك النور الخافت، المؤثر، الفياض بشجن الكون، خافت، خالص من الكدورات، يلغى ما عداه، يخف وزنى ويشف ثقلى، ما حيرنى.. تساؤلى عن مصادره، منابعه، طوال سعى لم أكفّ، حتى أيقنتُ أننى مواجه بأمر لم أعهده، وأننى بعده غير ما كنت قبله!

الأعمدة نحيلة، أقطارها متقاربة، يمكن اعتبارها أنوثية الطلع وذكورية أيضا، توحى بهما معًا فكلها جامعة، اثنان.. اثنان.. أو.. واحد. واحد. الأصل دائمًا مفرد، لا يستمر طويلا إلى أعلى، قصر محكم، مسيطر عليه كما يبدو للطلة الأولى، لكنه مستمر، لا ينتهى. لا حدّ له، تبدأ همزة الوصل الأولى والكبرى فيما يلى القاعدة المربعة والتاج، تيجان مختلفة غير متشابهة، إنها نقطة التلاقى، محطة الارتقاء والتفرق أيضا، منها ينبثق القوس الأول الذى يصل بالواحد التالى والثانى أو الثالث أو الرابع أو.. السابع فى الوقت عينه، كل ركيزة أول وآخر، يكتمل القوس فى الفراغ قبل نزوله إلى نقطة التماس الموازية، من الاجتماع تبدأ قاعدة الصعود وعند لحظة معينة، محددة يبدأ تفرع القوسين الأكبر حجما، الأثقل وزنا، يميل الانحناء إلى يمين، إلى يسار، تستمر المتواليات إلى ما لا نهاية تلاحق الأبصار أينما ولت، أينما وقعت لا تمكث، حركة غير مرئية. ضجيجها خفى، غير مسموع، أدنو متهدهدًا، مفارقًا كدوراتى الأسيانة.

أى غرابة؟

لم أعرف شيئًا كهذا.

كون مقلوب، يعلونا، صحيح أن الأرض تشدنا، تمسك بنا أن نقع فى الفراغ، أن نتحول إلى كويكبات حائمة، من هذه الأرض المعتَّقة كان قدومنا، وإلى ذرات النجوم نعود، هذا مقطوع به، لكن ثمة مركز وتشابه، هنا لا بد من قعدة ولو يسيرة.

جــاذب

أويت إلى أحـد الأعـمـدة، طمـأنتنى الظـلال، وانقطعت عن كل كدر وضجر، أغمضتُ عينى. أدْركُ أننى ساع إلى مركز ما، لا أعنى المحراب. فهذا موضَّح، مبيَّن، وأعرف موقعَهُ ممَّا طالعته، وأدركتُه. لكننى أعنى آخر لا يمكن تحديده أو الإلمام به، خُبّىءَ، فى مكان وزمن ما، منفـصل عنا، أو متـصل، لا يمكن التعـيين، لكل مـركـزه. ومما قرأتُ عنه وحـاولت الإحاطة بالمتاح من معلومات عنه، ما يُطلق عليه فى علـم الفلك الجـاذب الأعظم. هذا الكون الشـاسع، الذى تقـدر أبعاده بمليارات السنوات الضوئية، له عمر، ومن له عـمر يعنى ذلك أن له بداية. ومن يبدأ لابد أن يصل إلى نهاية، فلكل أول آخر، وإلا لما كان ثمة أول، هذا مقطوع به، ولأن كل شىء فيه يدور؛ فلا بد من لحظة كف، لحظة تكتـمل فـيهـا المنيـة، تهـمـد الفـورات، والهـدير، والتهام الطاقات، ومن الهـمود يكون التـجدد، وما ينطبق على أنأى الأفلاك، أقصى النجوم والـمجرات، نلقاه داخلنا، فى الخلية التى لا يمكن مشاهدتُها إلا بالمجهر.

هناك. . ثـمـة مـركـز، يطلقـون عليـه «الجـاذب الأعظـم». لم يره

أحد، ولم تقتنصْ أطيافَه آلاتٌ متاحة، لكنه الاستنتاج بعد إجراء حسابات دقيقة، أمكن الاستدلالُ عليه.

الجاذب الأعظم. .

بؤرةُ الكون؟

لبّ الصيرورة؟

يمسك الكلَّ والجزءَ حتى لا ينفرط الأمر. لكل شيء نواة، منها يبدأ الحضور وإليها ينتهى الغيابُ، مسالك لا تعرف أى تعريج. إلى جوار العمود قعدتُ بمفردى رغم مرور كثيرين حولى، كنت مشغولاً بالنظر الداخلى، حولى، إلى أركان المسجد، بالبحث عن مركز أدرك وجودهُ ولا أقف عليه.

أينما وليت وجهى لا أرى إلا تلك البنية الشهباوية، وفيضها الأنوثىّ الغزير. أتبع الضوء الهادئ القادم من منابعَ خفية، علوية، يعبر ما بين الأقواس والدعامات والحنيات وتجاويف الزخارف، أتلملم، أتواءم مع ذاتى مقدارَ لمحة، لكنها كافية.

الحضور كله موجز فى الآن وهنا، وقت ومكان، أستوثقُ أن بؤرة وقتى الآن تلك الدافئة، العابرة. تلك العلامة، دنتْ ونأتْ.

أعرف أن الوعى بسرّ النغم يعنى تلاشيه، وأن الإمساك بالإيقاع إيذانٌ بفنائه. هذا ما يدفعنى إلى الرحيل عبركافة الاتجاهات، المرئية

واللامدركة بالحواس. الآن. ليس لى إلا السعى، لا وقت للتطلع هنا وهناك، الإمعان فحسب، الكفّ إبادة. التوقف فناء. أليس هذا عين ما توصلتُ إليه فى كتابى «متون الأهرام»، ذلك أن الثقل هناك يبدأ من القاعدة، من الأرض يبدأ الحضور ويبدأ التدرج إلى اللانهاية، مع الارتفاع يخفّ شيئا فشيئًا حتى يتحقق التلاشى عند الذروة. ينتهى التكوينُ الملموس، المرئىّ، إلى آخر لا يمكن إدراكُه.

هنا فى قرطبة أواجهُ أمرًا محيراً، يتحدى القواعد السارية، إذ تزداد الكثافة مع الصعود، الثقل إلى أعلى، لا يمكن تعيينُ مرتكَزه، خفىّ مع أنه مشرف، مطل، هنا يبطل عمل الحواس التى نعرفها ويبدأ تأثير أخرى لا نعرفها، لم يدركها أى من حُذّاق العلم. الأعمدة، الأقواس فى حركة دائمة وإن بدت لغير أهل الإدراك ثابتة.

اتخذتُ عين الوضع الذى كنتُ عليه عندما صحبنى أبى طفلاً فى مسقط رأسى، جهينةَ، خاض بى لجةَ المزروعات من قصب وذرة وقمح وبرسيم وسمسم وما لا أعرف له اسمًا. من عادته أن يطوف بالنخيل الذى ورثه عن والده، حوالى مائة وأربعين نخلة، أقول حوالى لأننى لا أذكر الرقم تحديداً، معظمُها مثمرٌ، لم تكن بموضع واحد، إنما موزعةً على أنحاء جهينة وأقسامها الأربعة. يشير أبى إلى كل منها:

«تلك نخلتك..»

ثم يخطو أو يقطع مسافة ليواجه أخرى:

«وهذه . . »

يقول: «احفظ موضعها وراءها . . »

ترى . . هل كان يقدمنى إلى النخيل أم يعرّف الأشجار بى؟

اقتفيتُ نظراته، استعدتُها مراراً، ورثتُها عنه، كذا طَلّتَهُ، وَقْفَتَهُ فى مواجهة الجذوع والسعف والسُّباطات، غير أننى لم أرافقه فى زياراته الأخيرة، انقطعت ولم ينقطع هو، مضى إلى نخلاته وحيداً. هذا ما أكده لى القومُ بعد تمامه المفاجئ، رحمه الله، عندما عدتُ إلى البلد حاولتُ السعى إلى النخيل، لكننى ضللتُ طريقى، ولم يدلنى أحد.

نخيل متشابه كتلك الأعمدة، صارت وقفتى قلقة، غير واثقة، حائرة، والأقارب لا يساعدون، ولا يقدمون إشارة، ربما بدافع طمع أو عن جهل.

أستعيد وقفتى المفتقدة بعد أكثر من أربعين عاما، وأين . . ؟ فى قرطبة، فى الأندلس، فى القسم الأول، كأن عبدالرحمن الداخل وضع أساسه منذ ثلاثة عشر قرنا لأستعيد زمامى، وأتمكن. إلى هنا تفد أشجار النخيل كافة، تمر أمامى، خلفى، تنزع صفاتها ويتبقى جوهرها.

تومئ الأعمدة إلى كل مفتقد، عصىّ على الاستعادة، تتوالى فى

تتابع صارم، تدور حول بعضها، تتبادل المواقع، إذا رغب الناظر رؤيتها متجاورة شاهدها كذلك، وإذا شاء معاينتها فى خطوط مائلة كان له ذلك، وإذا أراد وضع حد لاستمراريتها حصل.

يستحضر البناء وما يتبعه من فراغات كافة الأصول والعناصر، من أرض وسماء، وتدبير وصدفة. واستقامة وميل، أشجار وأنهار، غيوم وظلال، كذا أصوات الكون.

أوشكُ على اليقين أن كل من عرفتهم يتطلعون صوبى، أبى يرقبنى، يمامة البشرية تحلق قربى، تتطلع إلىّ، أستعيد تضاريسها، عندئذ أصفو، أشف وأرق، تفيض منى بهجة، أرغب فى الانطلاق، فى الرفرفة، فى البوح، فى تقبيل كل حى وجماد!

كل هذه الأعمدة أمامى، تؤكد بتواليها لا محدوديتها، يسرى خلالها الضوء، خافتا هنا، ساطعًا هناك، نور على نور، نور من نور، نور يهدى ونور يعشى، نور من نور. عصىّ على الإدراك، مصادره نائية، مجهولة، أوقنُ بقربه وبعده، أستعيدُ القدرة على التوجه، على تجاهل الرصيد المتبقى.

أتمهل عند المفارق، والموضع كله نقاط تلاق وتباعُد. لحظة الاجتماع يبزغ الشقاق. كل جهة تؤدى إلى الأخرى، كل جانب هدف ومنطلق فى الوقت عينه.

لا أعبأ بالوقت، زمن آخر، خاص بدأ مع ولوجى. هنا نور البداية

وغسق النهاية، السقف المتوارى فى الأعالى، يلى سموق الأعمدة ومنحنيات الأقواس. عتمة خفيفة تسرى، مؤقتة، زائلة، لا تستعصى يمكن المشاهدة عبرها.

بغتة.. ينفجر ضوء ثاقب، نافذ، يكشف أدق الذرات العالقة، أما أصداؤه فتسلك شعبًا يؤدى إلى من أجهله. أتوقف عند عمود بعينه، نباتى التاج، تنبثق منه وريقات مومئة، تعلوه قاعدة، ثم ينطلق الحجر المستقيم صاعداً، يتفرع منه قوسان قرب بدايته، آخران أكبر حجما قرب نهايته، كل منهما ماض إلى وجهته، لكن ما رفرفنى وحيرنى كتابة محفورة، قديمة، أصلها كوفى وفرعها أندلسى مجوهر

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

لو أنى أشهدتُّها فى مكان آخر لما توقفتُ. لكن هنا.. مغاير. تلك الحروف، هذه الكلمات..

كيف اجتازتْ تلك الحقبَ كلّها؟

كيف تفادتْ الأحداقَ المدققةَ. الفاحصةَ، الباحثةَ عن المحو؟

أم أنها حفرت فى وقت متأخر خفية؟

كيف نجا المسجد ذاته؟

كيف صمدت تلك الأعمدة والأقواس والظلال، كيف بَقِيَ الضوء رغم كافة محاولات التمزيق والتغيير وتقطيع الأوصال؟

لا بد أن بعض المتنفذين فى القوم قدروا وتدخلوا، ألا يعنى ذلك أن الإبداع الإنسانى عند بلوغه الأوج لايقهر العدم فقط، إنما يصدّ التعصب ويضع حدًا لضيق النظرة.

أتهيأ للتقدم عبر الفراغات المتصلة، المنقطعة. مهما قويت الرغبة فى البقاء، لا بد من الخطو، التأهب للمفارقة. مغادرة البداية إلى الإضافات، هنا الأصل، ما عدا ذلك ترديدٌ وترجيع، هنا انبثاقة الخيال. بدء التكوين ومركز القضية. ما يتبع مجرد تقليد وتكرار. آنستُ من الفراغ أمنًا وطمأنينة.

أتلمس الحجر بالخاطرة، بالفكرة، أكاد أدرك أصداء العابرين، المولين، ما من تعلق بالحواس إلا ويخلف أثرًا، غير أن إدراكه غير متاح للكل.

لا بد من سعى، مهما لانت الإقامة، وتعددت فيوضاتُها فلا بد من الخطو، مهما بدا الفراغ وثيرًا فالخروج حتمىّ والمفارقة ضرورة. .

توالج الضوء

مع أنها عين الأعمدة من حيث الظاهر، إلا أن الزمن مغاير والموضعَ مختلفٌ والتطلع متقلب، هنا اكتشف التداخل، الضوء فى الضوء، ونفاذ الفكرة عبر الفكرة. ولحاق اللحظة باللحظة.

تفد الأشعة منبعثة من الحجر، صادرة عن مسام لا تُرى، صخر مجوهر، لون يلد لونًا، لكل قوامه وإمكانياته، الأصفر والأزرق والأحمر أصول لا تستحدث، أما الأبيض والأسود فلا سبيل وما من شعْب مؤدّ إليهما.

إذا نكَحَ الأزرقُ الأصفرَ يتولّدُ الأخضرُ.

امتزاجُ الأسود والأحمر منجبٌ للياقوتى

ذوبان الأحمر والأزرق يتبعه البنفسجى.

تختفى الألوانُ الأصليةُ، يمكن الاستدلالُ على حضورها فى توالى الأطياف الجديدة، لكنها كلها لامعنى لها إلا بالأبيض، بالنور، هذا ما أدركتهُ في القسم الثانى والذى يعرفه من اطلع على المراحل التى مرّ بها البناء. لكن.. ما لم أقفْ عليه. ما لم أقرأ عنه، ما لم

يخبرنى به أحدٌ ذلك الكونُ غير المنظور، يبدأ من هنا وينتهى هنا. الضوء هنا كون مُتكوّن، مُكَوّنٌ، يكتفى بعناصره، إذا أعْتَمَ الخارجُ بَقِىَ على حاله. إذا أظْلَمَتْ المصادر لم يكفْ. إذا قام حجرٌ انبعث منه، إذا أوصدَ بابٌ صَدَرَ عنه، إذا عشقْته عينٌ بدا لها كما تريد، كما يهوى صاحبها، لا أدرى.. هل تواطأ المهندس الذى شقّ قلب البناء، وأقام فى المركز تلك الكنيسة الضخمة، الهائلة، المتنافرة.

«ياه.. لقد دمرتُمْ شيئا لامثيل له فى العالم، وبنيتم ما يوجد مثله»

هذا ملك إسبانى تفصلنى عصورٌ عنه، لكنه فاهم، متفهّم، مثله مَنْ أوقف الكارثة، أما المهندس الذى لا أعرف عنه إلا ما يشبه اسمه، «هونْنا رَويز» فلا بد أنه أدرك.

رغم متانة البنيان وزخرفته، إلا أنه خفىّ، يظهر فجأة بدون تمهيد، يكتشفها الساعى فجأة. من داخله تبدو أعمدة المسجد متحلقة، متطلعة، وأقواسه التى انفصلت عن مثيلاتها، بعضها وحيد، منبت، لكنه شاخص، متصل وإن لم يتصل. بدون تدرج، بلا تمهيد، تبدو فجأة للزائر الساعى، لا يرى ملامحها المغايرة إلا عند محاذاتها ثم الولوج داخلها.

ماذا يعنى اختفاء البناء المغاير؟

بماذا تفسر الظهور المفاجئ للكنيسة رغم ضخامتها؟

هل قَصَدَ المهندس، المخطط ذلك؟

النور في فراغاتها أصْرَحُ، أسطع، لكنه ينهل من المنابع ذاتها، عند التطلع من داخلها إلى الأعمدة البادية، تبدو دانية، قريبة، هكذا جمعٌ وفرقٌ، وصل وقطعٌ، استعان بالضوء على تحقيق الوحدة والفصل.

لماذا لايكون حضور البناء المغاير إشارةً على الجمع بدلاً من التفرق؟

أطوف، أتقدم، أتراجع، أتَنَمنَم، أنتظر مرور الجماعات الزائرة، أتجنبها، كنت راغبًا في تحقيق الانفراد، الإصغاء، اختراق العصور البائدة بحواسي، لا أسعى إلى ملموس، لكن قصدي معان لم يتوقف عندها أحد، لم يشملها تدوين.

لكم توقفت أمام كوات ومقرنصات وزخارف وزجاج معشق بالجبس وقناديل معلقة وخطوط متعاقبة وظلال من ذكريات مولية، لكن شتان ما بين رسوى هنا وهناك في سائر مواضع العبادة التي عرفتُها. وهذا المسجد الظاهر. الخفيّ. المتفرد.

كنتُ مضطربًا، وعندى شوقٌ وشَرَهٌ، أن أرى ما رآه كل من سبقني، أن أطلع على شيء لم يستدل عليه أحد قبلي، أن أقف على مجمل التفسيرات المحتملة في الأزمنة القادمة، العصور التي لن أبلغها.

أتوقف أمام لوحة رخامية.

ألتفتُ . .

لا أحد.

لماذا أيقنتُ بوقوع ظلها وحومان فتنتها، وحضورها القريب؟

يبدأ رحيلى مع القلم الكوفىّ، كل ما تقع عليه عينى يجاوبني، يسلم ويبلغنى البوح، لو لمستُ الحجر لواجهتُ رد فعل ما، لا أقدر على تحديده.

بسم الله الرحمن الرحيم

أشهد أن لا إله إلا الله

ما شاء الله كان

ولا حولَ ولا قوة إلا بالله

أتوقفُ . .

أنثنى مكرراً القراءة، مرة بالنطق، ومرة بالصمت، أنتبه إلى رجل متوسط القامة، يتطلع نحوى، فى قسماته شَبَهٌ منها، يحسم أمرَهُ، يدنو منى.

يستفسر بالإنجليزية، أو هكذا فهمتُ . .

ماذا تقول؟

يشير إلى اللوحة، أبدأ محاولاً الترجمة، لا أتعثر، كأنى أحفظ السطور كلها بلغات مغايرة.

عندما فرغت لم يكن فى جوارى اختفى، لم أهتمّ. إذ عاودنى اليقين أننى أتحرك فى دائرة بصرها، أقرب إلىّ مما أتوقع. أن شُقْرة جسدها ليست مستمدة إلا من تلك المويجات الهادئة السارية، ملامُحها الهادئة، الراسخة، الواثقة، مبثوثةٌ عبر الوجوه كلها.

رؤية عابرة أوهكذا خُيل إلىّ صارت مرجعًا وسندًا . .

أخطو، لا أرجع إلى نقطة أو لحظة توحدت بها، توقيتى صار منى، منقطعًا عما حولى، أتوقف، أطل، أنظر، وعند حد معين أخلى مكانى لأنتقل إلى غيره بدافع غامض يعسر علىّ وصفُه أو تفسيره. لا أدرى هل اقتربتُ من المحراب أو اقترب منى؟ تبدو الأقواس وتتجاور الفصوص. يبلغ الحجر الصقيل درجة من الإفصاح عن المكنون، يومئ، يشير، يدل، ألتفتُ مرة . .

شخوصُ الأعمدة. من منتصف الخط المواجه يمكن رؤيتها كلّها مجتمعة، متفرقة، متطلعة، ناظرة، حتى المناطق العلوية أو المعتمة فثمة إيماءات واردة منها وضرورة. إظلامها الخفيف جاء بترتيب مقصود وغير مقصود. فلو أن الضوء سَرَى من المركز إلى كل الأطراف، لو أنه قصد النواحى كلها وسائر الزوايا والأركان لما أمكن رؤيتُه أو الإبصار به. أو معرفةُ الظل من نقيضه، فالنور لا يُعرف بالنور، إنما بالعتمة. هكذا . . لا يمكن إدراك القوة إلا من خلال الوهن، والسطوع عبر الخفوت، كلاهما لازم، وبدون الامتثال لا

يمكن إدراكُ أوفهمُ تلك الزرقة، والحمرة، والشقرة الصهباء، وسكينة الحجرالمتراص.

أدنو من الانفراجة المحكمة. حيث يبدو لناقص الدُرْبَة أنه بالغ وحده، أنه سينثنى بعد خطوتين أو ثلاث، لكن . . من أدرك الإشارة يعى خلاف ذلك.

ثمة مصدر، ثمة مركز . .

ربما أمامى، فوقى، تحتى، حولى، عندى، بدايةٌ وغايةٌ. إنه حدّ الضامّ والمضموم. الوقت عصرُ ديمومى، لم أتطلعْ إلى ساعة، إنما دليلى حسى وكفايتى. تجاوز المحراب محال، فى الابتعاد أكثرهلاك، التطلع مع التزام الحشمة هو الغاية. لذا وجب السجود . .

عصر

إنه الوقت الموازى لبدء حنينى عند استعادة ما جرى، المترجم فى تلك الدرجة من اللون المعتق، تمسك بناصية الأحمر والأخضر الغامق والأصفر المحال!

تصطفّ كافة الأعمدة خلفى، كل عمود وقعتْ عليه عينى، ليس هنا فقط. إنما فى سائر محطات عمرى، تشخصُ الكواتُ بعيدة المنال، بدءاً من مسجد سيدى مرزوق، وضريح سيدى ومولاى الحسين، القاهرى، وضريحه الكربلائى، ومشهده الدمشقى، إلى هذا التكوين القرطبى الضامّ.

تلك الذرات المنتظمـــة، الدائرة، الواصلة مـــا بين المنبع والمصب، تخف الرجْل، بل تختفى تماما، تنفضّ الزحمةُ، يخلو الفراغ من الفضول، والضجيج والشروح، يتلملم محتويًا ضوءه، وأنفاس القدامى العابرين، أنفرد بالفائت والقادم، وما بينهما أشفّ وأذوى، تقرأني الآيات المنقوشة بالخط الكوفىّ، من الحجر يبدأ السعي صوبى، يتألق الضوء مسترسلا.

إنه لونها.

أمعن فى السجود صوب لب القصد، وجوهر الوقت، مستوعبًا المكان كله عندى، بأقسامه، ومدارجه ومراحله، وكل تلقّ ممكن واستيعابٌ محتمل، أضمه ويضمنى، غير أن التمام يعنى دنوّ الرحيل. ألم يقل السابقون إن الراحلة إذا اكتملت ذهبت؟

يتماسُّ مرفقى بمقدمة ركبتى، على مهل أزداد اقترابًا من هيئة الطائر، تتزايد عندى الرفرفة، أعى خفتى وبدء إقلاعى، أغمض عينىّ لليسر والنشوة الهادئة. وكلاهما لم أعهدهما من قبل، أسرى عبر الضوء، يصبح الموضع كله فى متناولى، أنفذ من سائر الكوات.

فراغ يفيض بتلك الشقرة الضوئية، بريقات كهرمانية تبثها شمس أصيلية محدقة، وصمت أبدي سَمَحَ بإصغائى إلى تحليقها صوبى، واقتراب دفئها من محاذاتى، فتهيأت للبث والتلقى.

طليطلية

لا أطمئن إلا قرب الأرض، مُكثي في الطوابق العليا يثير اضطرابي ويقلقل نومي، إذا اضطررتُ إلى ركوب البحر أتعجل نزولي إلى البر، أثناء سفري جواً يتضاعف قلقي عند قطع المسافات فوق البحار، حتى إذا لاحت الأرض من علو شاهق يحل بي أُنْسٌ غامض، مع أن العلوّ الشاهق لايتبدل ولا يتغير.

حتى سنوات قريبة لم يكن حالي، لكني وعيتُ بالأرض منذ أمد ليس بالقليل.

ربما بعد فوتي الأربعين، ربما بعد استقرار أبي وأمي داخلها واتحادهما بمكوناتها، وبدء تأهبي لرقدتي إذا ما احتواني عين الموضع الذي أعددته لذلك، حتى إنني أجتهد لأرى بعين البصيرة رقدتي الليلة الأولى، واستسلام ملامحي، بعد انتهاء الصراع، وكمال صورتي الإنسية قبل تبددها وذهابها الكلي، لو الأمر بيدي لتحسستُ كل موضع وطئته، وملست عليه وسألته عمن عبره قبلي؟

غير أننى لم أتوقع قربى واندماجى بتلك الدرجة التى جرت لى فى طليطلة، نزلتها سبع ليال، وفى الأخيرة خرجت من فندق الجريكو حيث يقيم بعض صحبى، قاصدا فندقى الواقع قرب بوابة الشمس العتيقة، عند بداية الطريق الصاعد إلى مسجد النور، الصغير، المضموم، الملموم، الشجى.

أيامٌ قصارٌ لكنها كثيفة. لم أكفّ عن الطواف بدروبها، بحواريها الطالعة، النازلة، المرصوفة بأحجار عتيقة، بيوتها متقاربة الواجهات، دمشقية المداخل والنوافذ، ثمة بريد سارى فى الفراغ لا يفضّه إلا من طاف وعرف ولو بعضا من كل، به إيماءات قاهرية، وتصريحات حلبية، وأنفاس مراكشية، وحنين تعزى أو قيروانى، لستُ غافلا عن هذا، عن العيون التى تطلعتْ، والأجسام التى تواجتْ، وشهقات المتعة التى ترددتْ، وأصوات الصغار التى أفلتت عبر الصمت المسدل، كذا الأيادى التى صافحت أو تماسكت، والثرى الذى طوى، هذا قصدى.

تتغير التضاريس، تقوم المدن، تندثر، لكن اليابسة باقية، أرضية المسرح، حتى يحين أوان التذرى فى الفضاء السحيق، هذا همّ قديم، أصيل عندى، فى تلك الليلة وما بين الفندقين أصغيتُ مطولا إلى ما خبا وابتعد، وتلفتُ بين ما كان وما يكون، حاولت اقتفاء المندثر. ولم أعْنَ كثيراً بتوقع الآتى، ذلك أن مراحلى انقضى معظمها، وما تبقى أقل - هذا مقطوع به - والخلاف حول المقادير لاغير. كافة ما تحقق

بالوجود يترك أثراً، حتى النظرات والأصوات. هذا يقينى أعلنه ليثبته من يتوصل إلى القدرة يوما ما بعدى، طليطلة مضمومة، مؤطرة بمياه نهر التاجه من ثلاث جهات، أسوارها بادية، متموجة، وقصدها معلن.

أهبط طريقا منحدرا، لايدرك إلا مع بذل الجهد، أتنسم هواء الليل الإبريلى، الأندلسى، القادم عبر المروج والوديان المزروعة بأشجار الزيتون، أين مصدر النسيم؟ من أين تنبع الرياح؟

ربما عند نقطة ما فى أعماق المجرات والسدم. ربما تتصل النسمة العذبة الملاحظة، المخففة بمجمل حركة الكون. تطلعت إلى أعلى وعندى توقٌ إلى ما أجهل وحنينٌ إلى ما لم أعشْهُ، ورغبةٌ فى لقاء أحبة غابتْ ملامحهم عنى، واندثرت من حافظتى. سرى عندى رَجْعٌ بعيد.

أنغامٌ ترددتْ عبر الفضاءات يومًا . .

حواراتٌ خافتةٌ عند دنوّ قافلة

خروجُ فتية إلى سفر طويل

إطراقة امرأة تفتقد الإلف

هذا بيان

ليلة سبت . . عند مداخل المقاهى والمطاعم يقف الشبان

والشابات، يضج الفراغ بالحيوية، تتقاطع الوعود الغامضة، لكنها مـؤدية بلا شك، عند النواصى يطالعنى عناق، وضم، ولثم، وصبابات دافقة، وخصور متأهبة، وأكوانٌ ناعظة، ينعشنى مرأى التواصل رغم أنه باعث على شجنى، خاصة فى رحيلى، فى انفرادى، ويأسى من ونيس.

طليطلةُ شبقةٌ، تحنو على كل ساع فيها، لستُ استثناءً، دفقٌ بدأ يسرى عبر أوردتى وحنايا روحى، وقديما كان مثل ذلك يدوم ويؤجج توقدى، غير أنه الآن يثير حذرى، إذ أبدأ إصغائى إلى هروع دقات قلبى، إلى متى يمكن التحمل؟ أستعيد ما قرأتُه عن غُدّة لا تعمل فى الجسد الإنسانى إلا قبل تمام الرحيل بيوم وليلة، تؤدى إلى ما يعرفُه القومُ بصحوة الموت، بل إن أكثر من صاحب محيط بعلم الطب أخبرونى عن قذف المنى لحظة وقوع السكتة، وهذا عجيب!

أسترجع أمورًا عديدة مشابهة خاصة عند اغترابى مع أن سفرى لا يطول، لكننى أخاف موت الفجْأة وأنا بعيد، ما يثير رعبى أن أقضى فى ظرف لا يمكن معه عودة ما تبقى منى، لأتوسد الأرض التى يتكون ترابها من أجساد قومى، وإذا كان المصير إلى الوطء بالأقدام، فليَسْعَ فوق ذراتى إذن أهلى، يمنحنى ذلك اطمئنانًا فى حياتى الدنيا.

يتواصل الدفقُ عندى، أتوقف، أطلق صوتًا مضمومًا فى مواجهة الفراغ، ألوّح بيدى متسائلا ومستفسراً ومعربًا عن حيرتى وتوقى.

يَبْدُر هذا منى فجأة أثناء انفرادى أو تواجدى بين جمع مما يثير دهشة من لا يعرف.

أتوثب، هذا لم يتفق لى إلا بصحبة محبوبة. لكَم هى نائية عنى الآن، هى فى بلد وأنا فى بلد، لها وضع وعندى وضع، واللقاء وعر، وهذا تفصيل يطولُ أمرُه، لا فائدة تُرْجَى من ذكرها فلأقصرْ.

أتجاوز البوابة الأندلسية. السور القديم، البرج المربع، مداخل البيوت ذات الجدران المغطاة ببلاطات مشرقية الزخرف، لست متهيبا، غائب عنى حذرى فى المدن النائية، خاصة البلاد التى لا أتقن لغات أهلها. لا أعرف إلا كلمات محدودة من الإسبانية، أما الإنجليزية، فنادر من يتحدثها، بعض العناوين عربية الأصل، ظهر اليوم تحدثت إلى بنية رقيريقة اسمها «مُدينة» واهتمت بى قطيطة بشرية اسمها «زهراء»، شرفات بارزة، ونوافذ وافدة من مدن صغتها وصاغتنى، أوغل فى دروب لم أبلغها من قبل.

يتعاظم توثبى، هذا حال جديد علىَّ. لافائدة من المقارنة، انتفى المرجع، ابتسمتُ للواجهات، وناغيتُ الأرصفة، وعتبتُ على المداخل الصادّة، الموصدة، لا أعبأ بالدروب المؤدية إلى الفندق حيث مضجعى، ليلة أمس بدأ الرجل ودودًا، متعاطفًا، عندما عدتُ فى الثانية بعد منتصف الليل، قال:

«متأخر جدًا..»

أومأتُ مبتسما، معتذرًا، شاكرًا. طوال إقامتى لم أسمعْ منه إلا تلك العبارة لكننى أتمثل ملامحه الطيبة، ولسوف أستعيده. وَلجْتُ بوابة الحديقة التى لا أعرفها. أتقدم على أصداء الضوء، مقتفيا رائحة الحشائش وتنهدات الزهور، وطراوة الندى. تنأى الأصوات، وتخفُت أصداء النجوم. ارتعاشاتى تدفعنى إلى نزق مبين، إلى توثّب، إلى رغبة فى الصياح، حتى أسمع كل حىّ بالمجرة.

أستعيد لحظة أو تعيدنى، عندما فارقتُ مكان إقامتى ليلة وصولى الأولى إلى مدينة كبرى لا أعرف فيها شيئًا لأتبع وصفًا أدلَتْ به المحبوبة حتى يتحقق اللقاء، ينتفضُ قلبى، يطوحُنى الحنينُ، يميل جذعُ روحى، أعجب ما يتبقى من أعز ما نعبره وهيّنات هشة لاتصمد حتى للتذكر، لكنها تقضقض وتزلزل الروح بما يتجاوز زمن وقوعها، ترى.. كيف أستعيد هذا الدفق إذا ما قدر لى استعادتُه بعد عشر أو عشرين؟

أى الملامح ستبقى؟

أى مشاهد ستتوارى؟

تلك الشجيرةُ؟ هذا السور القصير؟ صوت قطرات الماء المفارقة للصنبور؟ تلك الرائحة المنبعثة للتو؟ عبير أنثوىّ عات، بكرٌ. لم يمرّ على أحد، أميل لأشمها، أبدأ انحنائى، أبسط راحتى راكعًا، أستنشق متجرعًا، ثم أعتدل لأتذوق متفحصًا.

خليط من حناء وليمون وخلاصة ياسمين، ومسامّ أنثى لم يمسسها ذكر، أقرب إلى الريحان، مززة، محرضة، تتخلل الرائحة الغضة سائر حواسى، أتنسمها بسمعى، وبصرى، ومسامّ جلدى، أميل مرة أخرى فتعاودنى الهدهدة المورقة، اللطيفة. تقسو علىّ رغبتى. أتمدد بطولى كله، أدرك فجأة الحضور الأنثوى الدانى منى، لم تعد الأرض صلبة، إنما مرققة، لينة، تطاوعنى، أدرك أن طليطلة بما حوت وما جرى فيها، بعلانيتها وسرها، بفجورها وتقواها، تمنحنى ما لم يعرفه بشر. هذا مكان مؤنث يعول عليه، لين، يميل معى لأتخذ الوضع الذى يمكننى، ويجعل المدينة كافة فى إطارى، فى متناولى، أسدّ سائر فتحاتها، تلك رغبة وافدة لم أعرف لها مثيلاً، أستعيد حلاوة المتعة الأولى، لحظة اكتشاف بلوغى وهذه الطلاوة المصاحبة لاكتمال النشوة البكرية. لكن ما أعرفه فى هذا الليل الطليطلى مغاير، متجاوز لكل مألوف.

تمتد ذراعى لتضم ما وراء الظاهر، إلى ما لا أدركه بالبصر، أتجرد من كافة ما يغطينى، ما يحجبنى عنها. أدرك احتوائى لها، أضمها إلىّ، بأشجارها، أطيارها، فصولها، أصباحها، أصائلها، أصواتها الخاصة، نواصيها، منائرها، أضوائها الهادية، ونوافذها المشرفة، وأحجارها المرصوصة، وزهورها النابتة.

هذا نكاحٌ لم أسمع بمثيله، أواصل إيلاجى إلى سائر جهاتها، أضمها إلىّ، أدنو من تلك اللحظة الراجفة حيث تندمج مكوناتنا،

ويصعب عليّ إدراك أجزائى من أجزائها، أعاطيها وتعاطينى، منى إليها ومنها إليّ، عبرها أسرى إلى الأشجار النابتة منها بكافة أنواعها، إلى مويجات الماء المتدفقة فى جداولها، الزهور الدقيقة قصيرة المدى. إلى كل أرض سعيت فوقها. العمار. الخراب، ما طليطلة والقيروان وفاس وقابس ومراكش وشطب وسمرقند وجهينة وأخميم وبُخارى وعشق آباد وبودا وصنعاء والبصرة وقونية وقسطنطينة ورشيد ودمياط وجبل المطير إلا إشارات ومسميات، أمَّا استكانتى فعند إطلالتى الحيية، التواقة، الأسيانة، عبر غصن ريحان منبثق منها، متشبث بها، ذاك حسبى.

خجلَةُ الشذا

لكل أنثى طيبها، لا يتشابه شذا إحداهن مع أخرى، وعبر أيامى عَلقَ بى من النفح الجميل ما أنوء به، وما يفلت منى إذا اجتهدتُ فى محاولة استدعائه. أصعب ما يستجيب للذكرى الأصوات والروائح. كل منهن كَوْنٌ قائم، خصوصيته مبثوثة، متوقعة، وكما تنفرد باستجاباتها فى مراحل العشق المختلفة، فإن ما ينبعث منهن متنوع، ما علينا إلا التلقى والامتياز.

أعتق ما أحتفظ به، عبير «علية» - رحمها الله - ليس هذا التدوين بمناسب للحديث المفصل عنها، ذلك أننى أحطتها طفلا وتمكنت منها قبل أن أعرف، إنما أشير إليها باعتبارها المرجع الأول لروائح بنات جنسها، أعطافها كانت مخملية، تسبقها وتتبعها، لا يمت طيبها إلى أى عطر معروف من صنع الإنسان، هى من نبهتنى إلى اقتفاء عَرفهنّ، وتقصى ما يشتملن عليه، كانت نسائمها متداخلة مع قماش جلبابها الرهيف الأبيض المرصع بالدوائر الزرقاء المنجمة، ما أخذه خلال ملامسة مباشرة لمسامها، وما تفرزه روحها، وما تخلفه الظلال، والتدثر بالأغطية، والصابون المعطر، ومنابت الشعر الكثيف، علقت بى وأصبحت فيما يلى ذلك أساسا للمقارنة حتى

بعد رحيلها بسنوات وما تزال. لم أتنسم مثيلا لها إلى أن خضت اليَمّ.

جرى ذلك فى البحر الأحمرما بين جزيرة الجفتون ومرسى الغردقة، كنت فى إجازة مع امرأتى وأولادى، وفى أثناء العودة فى قارب من طابقين. وبمجرد أن وطئته، كأنى ولجت خيمة غير مرئية، لكنها عبقة بالعبير، ولم يكن وعراً علىّ تحديد المصدر.

شاب وشابة، عروسان، بدا تقاربهما مبهمًا، ما زالا فى البداية ويبدو أنهما موفقة، كانت تعلّق صليبًا ذهبيًا يتدلى من سلسلة نحيلة، فتحة الرداء برحة تسمح بإطلالة على مفرق النهدين، بدايتهما الثرية، تطلعهما إلى بعضهما مثير للتفاؤل، للحنين، للتقرب من كائن ما فى مكان بعيد، صعب تحديده، ما من مشهد عندى يثير عندى الحنين، والترقق والتفنن، مثل عاشقين يتبادلان المحبة، لذلك أقرب الطير إلىّ اليمام لما رأيته منه عند اجتماع الإلف بأليفه.

الحق أننى بدأت التسلل البصرى، تكوينها مربك لمن يتطلع إليها، لوفرتها، وصميمية استداراتها، لكن ذلك لم يكن قصدى، لحضور عريسها هيبة لم أشأ انتهاكها حتى بالصمت، ما جذبنى شذاها، لم أعرف مثل ذلك، غطت على ما عداها، بل طغت..

نجلس على المقعد العريض الخلفى، قرب الماء المتراجع بزبده الأبيض الكثيف، رائحة البحر النفاذة تتصاعد إلى الفراغ المحيط، يود

ناشع، زرقة متنفدة، أنتبه إلى تزايد فوحها، تجاوره بفيض البحر ثم تجاوزه، احتوائه لما يضمه اليم، مرجانه وكهوفه وأسماكه. أستعيد رائحة علية المخملية، الموحية بالأسرار. الواعدة بتفسيرها، بفضها أيضًا. لم تكن هى تماما، لكنها قريبة منها، مصونة، مُذكية، أجَّاجة، محركة لما يكمن عندى.

أكف لحيظات احترامًا وحسرة، أما الاحترام فلذكرى عطر محبوبة سلافية روسية، كونية، بدأت معرفتى بها فى طشقند، وتوطدت فى موسكو والقاهرة. ورغم تعدد إشاراتى إليها وتطرقى إلى ذكر بعض التفاصيل أحيانًا إلا أننى لم أفضْ إلا بقدر، ولم أبُحْ إلا بالنزر اليسير، الحق. . أن المرء مهما بلغت نصاعته ودرجة صراحته، وقدرته على المكاشفة فتظل عدة ساحات عنده لا يطرقها ولا يدنو منها، ولسوف أكتمل رحيلاً بدون اطلاع مخلوق عليها. ونصيب هذه البنية من تلك التخوم كثير، كلما توهمتُ شبها بمخلوقة غيرها يخيب ظنى ويأفل وهمى، ربما ألمح منها قبسًا فى هذه أو تلك، ولكن فرادتها مطلقة. وقد بددتُها بنفسى وقصر نظرى، صحيح أن الظروف لم تساعد، ثم جرى ما أضاف عسرًا على عسر، لكننى مسئول عن الوزر كله، وها أنذا أنوء به وأتقضقض ومنه تنبعث حسراتى.

أغار على صورتها عندى إذا وجدت عندى نزوعا إلى أخرى ماثلة أمام حواسى. ألوذ بكافة الزوايا التى علقت بذاكرتى التى وهنت بالنسبة لكل شىء عداها، هكذا حاولتُ التحصن بما تبقى عندى من

شذاها، غير أن الفوح المنبعث من تلك البنية كان أوعر وأنكى، وجدتُ فيه الخلاصة، ازددتُ قربًا من مخملها، ما ينبعث منها يوقع الجذب، بالتدقيق يتضح التنوع، فلمنابت شعرها عطر، ولانبعاث نظراتها، ولشفتيها قوة البوح العنبرية، لكل أفق من آفاقها أريج وطلة مغايرة، تقلبتُ ما بين ظاهرها وباطنها، تمرغتُ ما بين ظاهرها وخفيها، ما بين سداها ولحمتها، لكن أغرب ما عاينته خجلةُ الشذا، فكلما اقتربت تراجعَ طيبُها، وكلما حاولت راح منى، يتوارى، أجتهد لاستدعائه، فلا يمكنني ذلك، لم أعرف رواءً لشفتين مخلوقتين كشفتيها. لهما رائحة شقائق النعمان، إذ يشتد شجنى أحاول تلطيف حالى باستعادة صورها والفرجة عليها. أو قراءة رسائلها بصوت مرتفع، أنغم كلماتها، أرتلها.. لعل وعسى، أخرج هذه الوريقة الصغيرة المنتزعة من دفتر، خطتْ عنوانها بالروسية والإنجليزية التى تجيدها. ربما أخط رسالة جديدة أشيعها إلى العنوان الذى أنقشه على مسارات نظرى ودفقات قلبى. يمكننى النطق به حتى ليظن المستمع أننى متقن للغة أهل البلاد، مع أننى لا أفقه إلا حروف اسمها.

العروس تتطلع، عينان جريئتان، ناكحتان، نفاذتان، أيقنتُ أنها تأخذ المبادرة عند الخلوة، غير أن أفدح ما عندها نسيمها، ولأننى مدرك موقوتية الرحلة وقصرها، لم أعد حذرًا كبداية اكتشافى لها. وصار حضور محبوبة الزمن القديم بدافع إراحة الضمير والاعتذار

المستتر وليس الوقاية، تجلس متململة حاضة، محرضة، غير أننى انتبهت إلى تمهل القارب، وارتفاع الموج، يتدافع الرذاذ صوب الجدران الخشبية المطلية بالأبيض، ماذا يجرى؟

تستنفر خشيتى من الماء، يتقلب اليم، الموج قادم، متدافع، يحل بعضه مكان بعض، ثمة شيء يجرى، أتابع حركة البحار القلقة، لا أسأل، غير أننى أرصد ذلك التغير الذى وقع بمساحات شاسعة من المسطح المتموج الفوار، يتأجج كالقدر المغلى.

دوائر صفراء، تظهر، تتصل لتشكل بقعًا أكبر، درجة من الصفرة الخاصة مصحوبة برائحة تدنو من رائحة المنىّ الطازج، المرسل للتو. وتلك رائحة أعرفها جيداً. اكتشفتُها فى الطين المتخمر، والأرض المحروثة، ورَصَدْتها فى الفراغ مواسمَ تلقيح النبات.

أقف. أتطلع إلى البحر مدركا لما يجرى، مفسراً لنفسى ما يحيّر القوم، يومًا ما مضيتُ إلى جزيرة فى عمق البحر، هذا البحر عينه، اسمها الاخوين، تقع عند خط الحدود الوهمى المار عبر الماء، كان ذلك زمنَ الحرب، عندما عملتُ مراسلا حربيا بدافع منى لمشاركة أهلى محنةً كبرى، ولتهدئة روحى بتواجدى بين المقاتلين فى خطوط المواجهة. كانت الجزيرة نائية، تتمركز بها سَريّة صاعقة يتكلم قائدها بلهجة جنوبية جاوبتُه بمثلها، فما أنا إلا جنوبى الجوهر. هناك ما تزال الطبيعة فى بداياتها، الشفق، وتوالى الفجر، واكتمال العصر

والغسق، ميلاد الضوء، خروج الشمس من الأفق على الصخور والمياه والفراغات التحتية، العلوية، مع آخر ضوء يبدأ توافد النجوم، بلا حصر، لا يمكن رؤيتها فى المدن، قريبة، دانية، وفى الصمت تتردد قعقات شمولية. قال الضابط إن المنطقة غير مستقرة، إنها بدايات الزلزلة، مع الغروب ينفرد الكائن بالمكوّن، يتصل القديم بالمحدث، تصفو الموجودات وتشف، بالنظر لمحتُ ذات اللون الأصفر، عينَ تلك الدرجة، قال قائد الزورق الذى صَحِبَنا وجئنا به، وهو بحار قديم من أهل القصير، يحفظ دروب البحر من السويس شمالا إلى باب المندب جنوبًا، حتى لينظر فى ظلمة الليل إلى الأمواج فيدرك من أصداء النجوم موقعَه وإلى أين تمضى وجهتُه. قال إنه سفاد البحر، قال إن الشعاب والمكونات التحتية التى نعرف بعضها ولا نحيط بالآخر تتوالد فيما بينها، ولها مواقيت تستثار فيها. تماما كما يجرى للرجل أو الذكر من الحيوان، فإذا جرى ذلك تفرز هذا السائل، منىّ البحر لتتشبع به الشعاب الأنثوية، والكوينات المتلقية، أما الرائحة فقوية، تتجاوز المحدودية الأرضية.

أرقب العروس، تميل إلى البحر سافرة عن وجه يتفجر بالرغبة، لم تعد تنظر إلى الشاب الذى انزوى وتشاغل بالنظر إلى ما بين قدميه، وكلما تزايد دفقُ عبيرها، قَوِىَ الموجُ، واتَّسَعَ الموج الأصفر، وعندئذ انتبهتُ إلى البحّار النحيل الأسمر، المجرب، ينقل البصر بين البحر والشابة الفواحة. .

بُريقة..

شغفى بالسماع التركى قديم، دلّنى عليه ـ مطلع الستينيات ـ أديب متمكن، عاشق للحياة صحبتُه زمنًا، أعنى محمود البدوى، رحمه الله. كنا نمشى ما بين قبة الغورى ومسجده، كان يحمل حقيبة أوراق سوداء، عندما قال: «وفى الليل أدير المؤشر إلى إذاعة إستانبول. أسمع البشارف والموشحات فأجد منها ما يُحدث عندى شجنا..»

لا أذكر الآن السياق الذى قيلت فيه هذه العبارة، لكننى أستعيد إصغائى الأول. وبعده لزمتُ، لا أعرف اللغة، غير أنى ألممت بالأصوات، لها عذوبة وتمكُّن، حددتُ مواضع البث ومواقيتَه، وسجّلتُ ما تيسّر فى ليالى الصفو عندما يصل الصوت نقيًا، واضحًا، خلواً من التشويش، خاصة ليالى رمضان التى يمتد فيها السهر حتى مطلع الفجر. كلما سافر صاحبٌ إلى هناك رجوتُه إحضارَ بعض التسجيلات، هكذا تجمع عندى ما لا بأس به، غير أننى لم أكفّ عن التطلع إلى الرحيل، ونزول تلك الديار لأختار وأصغى إلى الأصوات الشجية إذا ما سَنَحَتْ الفرصة. إلى أن تحقق ذلك عامَ

ثلاثة وتسعين، عندما جئت إلى إستانبول وأقمت بها أسبوعًا. جئتُها من قبلُ عابراً، مرة أمضيتُ فيها نهاراً عندما قطعتُ المسافة بحراً من الساحل البلغارى فى مركب سياحية، والثانية لمدة ثلاث ساعات وكنتُ فى الطريق إلى بغداد من وارسو، والثالثة عندما وقع خلل فى الطائرة المتجهة من القاهرة إلى موسكو، أمضيتُ ليلةً غريبة لكن ما جرى خلالها لا يناسب هذا التكوين. خلال الأيام السبعة جُسْت فى دروب المدينة القديمة، تدثرتُ بظلالها، واحتويت لحظاتها الغُروبية. رماديةَ مبانيها، انتشيتُ فى مقهى «على باشا مدرسة». القائم بين مقابر دراويش المولوية الغاربين، ترددت مرات على المعرض الفسيح للأشرطة والأسطوانات القريب من السوق المغطى. خرجت منه قبل إغلاق بوابات السوق الرئيسية، كنت متعبًا لكننى راض بما اقتنيتُهُ.

توقفتُ عند ساحة صغيرة تعبرها العربات. لحظات مغادرة القوة المبانى الضخمة والمتاجر. يتدفقون إلى الطرقات، إلى الحافلات، إلى أماكن الانتظار، بعد قليل تُقْفرُ الطرقات، تخلو إلا من الغرباء وسفى الرياح وزخات أمطار متفرقة وزمن غارب.

كنت متعبًا بعد تجوال ساعات. استندت إلى عامود صغير من حجر، لم أتوقع شيئا غير عادى، شغلنى الوصول إلى الفندق. عند هذا الحد جرى ظهورها.

لم تكن راجلة، إنما بزغت راكبةً، تقود سيارةً رمادية، تتطلع إلىَّ، كم استغرق بقاؤها فى مجال بصرى؟

التحديد وعر، لم يكن ظهورها إلا عابراً، مفاجئًا، لكنه امتد عندى إلى ما قبله وما بعده، هذا الظهور المباغت، الخاطف ليس جديداً عندى، جرى لى مرات، أذكر منها صباح ذلك اليوم، عندما كنتُ أقف مطلاً من نافذة قاعة الرسم بالطابق الرابع من مبنى المؤسسة القريب من النهر، كنتُ أعمل بها مصممًا للسجاد الشرقى الذى درستُه. خاصةً الشيرازى والتبريزى وبخارى الياقوتى الذى برعتُ فيه، كان الضوء حليبيًا والوقت معينًا والفراغ محلّىً بالوَهَج القادم من فرن الحلوى هناك فى الطابق الأول، كنتُ أفكر فى نخلتين بالتحديد قائمتين بفناء وكالة بازرعة فى الجمالية، كيف نفذتا من زمن إلى زمن حتى وصلتا إلى وقتنا؟، فجأة فُتحَ الشباكُ المواجه. رأيتُ أنثى بهية، روية، تفرد ذراعيها، تواجهنى عارية تمامًا. ولا أظن أننى قابلت نهدين فى مثل شروع ونفور واكتمال ما وُوجهْتُ به. لم أستطع إبداء أىّ رد فعل، وعندما كدتُ أفتح فمى أغلقتْ النافذة، وانتظرت أربع سنوات، مُدّةَ مكثى فى المؤسسة قبل أن أغادرها مرغمًا، منفيًا إلى الجنوب، لم تُفْتحْ قط، ولا أراها إلا مغلقة كلما مررتُ وتطلعتُ، ولم أنقطعْ. لعل وعسى اهذا أمر فصلته فى الدفتر الذى سأفرده لنوافذ المدى.

مرةً أخرى، كنت فى روما، بعد منتصف الليل توقفتْ العربات عند ظهور الضوء الأحمر، إلى جوارى واحدٌ ممن أحببتُ وصحبت وتمنيتُ دوام الرفقة، غير أن القدر لم يُسعفْنى ولم يمهلْه. أعنى شادى عبدالسلام صاحب المومياء، رحمه الله. كنا فى نشوة بتأثير

نبيذ جيد، وطعام بحرىّ ممتع. ولا أذكر الآن موضوع حوارنا، لكننى أكاد أرى لحظة فتح باب العربة المجاورة واندفاعَ شابة عارية تماما، حافية، ضفيرتُها الشهباءُ الغليظةُ، تهتزُّ على ظهرها وتناوشُ مفرقَ ردفيْها الأشميْن، صحتُ:

« انظر يا شادى . . »

تجرى بين السيارات التى بدأت الحركة.

«شادى . . »

تطلع متمهلا، قال بتأنيه الذى عُرف عنه إنه لايرى شيئا، وحتى الآن لا أدرى إذا ما كنتُ رأيتُ أم أنه لم يشاهدْ كما أصرّ. غير أن تلك الملامح التى بَرقَتْ قرب السوق المغطّى أحاطت بجهاتى، لم أدر أن جملة نطقها محمود البدوى ستتجه بى إلى حيث ألقَى ما ألقَى، ولا أعنى انبثاق هذه الملامح البديعة، إنما جرى لى ما يتصل بتلك الديار ما سأذكره فى موضعه، عَلقَ الوجه كالأيقونة فى فضاء روحى، اعتبرتُ سنواتى كلها منذ أن أصغيتُ إلى عبارة البدوى مقدمة لرؤيتها، لكن . . ما هذا كله إلا تفسيرات ومحاولات للتهدئة، لتقوية الأمل الحاثّ على وقوع البصر عليها مرة أخرى، احتواء طلْعها النضيد . .

استُنْفرتُ

التشبيه وعر ، لكن ما بَقىَ عندى منها لونان اثنان ، أصفر وأزرق بكافة درجاتهما ، واشتقاقاتهما ، صيغَ شعرها الأشمُّ ، المسترسلُ منْ كافة اللحظات الغُروبية .

موضع عينيها حُقّان من فيروز مصهور . زرقةٌ صافية تفيض وتضفى عمقًا ، وكان ممكنا أن تطغى لولا أنها مؤطرة بالضوء . عنقٌ نفرْتيتىٌّ الميل . وضعُ الجلوس مَلَكىّ . سيَادىّ ، منه الأمرُ ولَهُ الطاعة . . هل أوْمَأتْ؟

اختفت عند المنحنى ، من المستحيل اللحاق بها ، هى راكبة وأنا راجل ، تطلعتُ إلى الجهة التى قدمت منها ، حدقتُ ، أمعنتُ . لو أشرقتْ تلك الطلة ، لو تكرَّر هذا الظهور ، يبدو أن انتظارى طال . أوْحَشَت الطرقاتُ ، وأعْتمَتْ الأركانُ . وَدَنَا شرطىٌّ مدججٌ ، طلب أوراقى ، أعاد الجواز الأخضر بعد تفحُّصه وتطلعه إلىَّ مرات ، لم أعبأ . كان ثمة دفء كامن يتحول ببطء إلى لهب ، هل بدأ معها؟ تذكرتُ النقاش القديم حول النار ، أهى كامنةٌ فى الحجر أم نتاجُ تفاعلات؟

نسيتُ حَذَرى ، خشيتى من المخاطر المجهولة التى أتوقعُها وأخشى وقوعها فى المدن النائية ، صرتُ إلى حال خبرتُه من قبلُ ، لكنه لم يبلغ هذا العنفوانَ ، لا القُعود ولا الوقوف ولا الرقاد جالبٌ للراحة ، أثق أن توقُّفَهَا لحيظةً فى مواجهتى ، تطلُّعَهَا إلىَّ يتضمَّنُ رسالةً ، يحوى نبوءة .

ما مضمونها؟

هذا ما أحاول أن أقفَ عليه، لم ألجأ إلى عربة أجرة إلا بعد منتصف الليل، في الفندق تجاهلتُ الأسئلة وأجهضتُ أي سعي للحوار، نزوعي إلى الانفراد أقوى من أي دافع آخر. في اليوم التالي جئتُ، رهبة الغسق تحكم قلبي، لم يكن مشروعُ إقامتي مجردَ فكرة، إنَّما وضعتُ الخطط قبل نومي، لم أدْر أنه سيتفق لي بعد حين غير بعيد. صباحَ اليوم التالي رتبتُ حاجاتي، سفري بعد الظهر، كنتُ أمشي كالمنفيّ مع أنني أعود إلى موطني. لم أكفَّ عن استعادتها في لحظات صفوي، ونوئي، عند إقلاعي، عند وصولي، في كل جمع شاركته، لكنني لم أتوقع قط أن أستعيدها، أن يتجلّى لي بريقُها الناعم، النفاذُ، القارئ، المقرئ. هناك حيث لا أتصور. ولهذا تفصيل أذكره ليس لغرابته، إذ عرفت أموراً عجيبة، وأخرى مثيرة للروع. لكن أدون ما عاينت لخروجه عن كافة ما عرفتُ، وسائر ما تمنَّيتْ.

جبرينية

رأيتها، انفردتُ بها وجرى بيني وبينها ترسُّل في عُمان، انفجر حضورها في إستانبول وجرى التحقق في حصن «جبرين»، لكن . . قبل التطرق لا بد من وصف حال عرفتُه، أعني تحقُّقَ ما نتوقع حيث لا يخطر لنا ببال، وربما كان الموت أجلى مثال. ذلك أنه يواتي بغتة، حتى مع تهيؤ الحال، مثل الحرب وسلسال المرض. لا يمكن تعيين اللحظة التي يكتمل عندها ويحل، لا يرصده إلا صفوة من خلاصة القوم أوتوا قدرة على رصد دبيبه والمصالحة معه، ومن هؤلاء نُدْرَةٌ يمكنهم التنبؤ بدقة.

أما حالي فوعر، ذلك أني دائم المنازلة لمن لا يُدرك، لذلك طال صراعي مع نفسي، ليال ثقيلة الخطى تدب عليَّ. أتوقع اكتمالي، ألا تطلع عليَّ الشمس، غير أن ما أتوقعه لا يتحقق، لم أكفّ رغم يقيني غموض اللحظة، وجهلي بالمختَتَم، يطول عنائي فيخيّل إليّ أن احتضاري بدأ عند ميلادي!

ما نرغبه، ما نرهبه، يحل دائما حيث لا نتوقع. خرجتُ من

الفندق ذلك الصباح الحارّ، مضيتُ بصحبة صديق حميم، أحمد الفلاحى نزيل مسقط، عرفته عند إقامته القاهرية التى امتدت سنوات عديدة، نادر لقاؤنا إلا أن الودّ موصول، وإذ نلتقى بعد غيبة سنين نستأنف حديثنا فكأننا لم نفترق إلاّ بالأمس.

مررنا بنزوى، توقفنا بأسواقها وحصنها. وتحسَّر صاحبى على نقص المياه فى أفلاجها وموت كثير من النخيل، وتناقُص الخضرة. جُلْنا بقلعة الرديدة، توقفتُ مصغيًا إلى الصمت داخل الأفنية الداخلية حيث اللانهائية مستَوْعبة، والأسوار لا تلغى الإحساس بالخلاء الممتد، ثم . . بلغنا «جبرين». وعند دنونا أدركت أن ما مررنا به مجرد مراحل، مدارج وصول إلى هذا الحصن ورديّ اللون، منذ اقترابنا بدأ عندى استنفار غير مبالَغ فيه. بيوتٌ قليلة متباعدة. متواضعة، النخيل غالبٌ والأشجار قليلة.

بعض الأماكن تمنحنى الإحساس بالبداية، وأخرى تؤكد لى نهاية ما، هنا مفتَتَحُ الخلاء الكونى، أُفُقٌ راسخٌ هادئ قريب، بعيد، وسطه ينبثق البناء من مسافة معينة يبدو دائريا، مصمتًا، مع قطع مسافة باتجاهه يبدو مربعًا، ثم مستطيلاً، متصلاً ببعضه ومنفصلاً، إذا وقف المرء القادم من عمق المدى يراه كما يشاء، مستطيلاً أو دائريًا، جدرانٌ مصمتةٌ تمامًا أو مرشوقَ الفتحات. بالنسبة لى جرى عندى توقع وتشوف.

باب صغير مؤدّ إلى الفناء التمهيدى، باجتيازه يتمّ العبور من حضور إلى حضور، من واقع إلى آخر مغاير، بل . . من كون إلى كون، بابٌ ضيقٌ، لا ينبئ أبدا بما يليه، لا يتيح الولوج للقامة المنتصبة، لا بد من انحناء شديد، لعمق الصمت يمكن الإصغاء إلى صوته. هسيس يُرَى بالنظر.

سجنٌ إلى اليمين، عند الحافة، أول ما يقابل الداخل، وآخر ما يراه الخارج، فتحةٌ لا تتيح الدخول إلاّ للمنحنى، مخزن التمر، تمتد داخله ألواح خشبية بينها فرجات تتيح للعسل أن يتدفق إلى أوان خزفية، نرتقى درج سهل، محرض على الصعود، على الإيغال، عند مستوى مرتفع قليلا حجراتُ النساء، تحتهن مباشرةً السجنُ، سقفُه أرضيةُ جناحهن، أرصدُ الرغبات المكمورة والفورات المقموعة، والأحلام الكابيّة، أجيلُ البصر مصغيًا، أصغى إلى المتبقى لا أدرى أى تعبيرات مرت، بدت. دعت صاحبى أحمد يتساءل:

«فيه شىء»

نفيت، عاد يستفسر:

«أنت متعب؟»

قلت: أبدًا. . أبدًا.

لكنه بدأ يتخلف عنى، يتيح لى الانفراد، ولا يتكلم إلا نادرًا،

حتى أدركتُ بعد لحيظات أننى بمفردى، وأنه ينتظر فى مكان ما، وأن اللقاء سيتم فى النهاية، المسار محدد، صارم، مرتب.

ممر قصير، بداية سلم متعدد الدرجات، ضيق، زاوية ارتقائه مصممة بحيث لا يمكن رؤية آخره حتى مع الصعود، مستمر، ما من شىء يليه. هذا ما خيّلَ إلىَّ فى الممر القصير، أيضا فى جناح النساء، يبدو أى جزء وكأنه الكل، لا يليه شىء.

قوس حجرى يعلو السلم، وللأقواس عندى شأن، ولى فى مواجهتها أمور. وللأقواس أمة فى مسجد قرطبة الجامع، المنحنَى عندى أقرب، إنه الأنسب والأدق تعبيراً عن المسيرة، فكل الخطوط، كل الطرق بها ميل، ولو أنها مستقيمة لما أدت إلى غاية، فلا يؤدى الطريق إلى آخر إلاَّ إذا كان به ميل، الاستقامة وهم؛ لأن الكوكب دائرى والكون أكرى.

أعلى القوس أبيات، أتوقف لأقرأها، ثم لأنسخها . .

نزلنا ها هُنا ثم ارتحلنا

كذا الدنيا نزولاً وارتحالاً

ظننا أنْ نقيمَ بها ولكنْ

مُقامُ المرء فى الدنيا مُحالاً

٣١ محرم ١١٣٩ هجرية

ما يقرب من ثلاثة قرون. من أنشد الأبيات رحل، ومن كتبها مضى، ومن يقرؤها الآن سيتبعهما.. اقرأ ما يلى الأولى.

ولابد أن أسعى لأشرف رتبة

وأحجب عن عينى لذيذ قيامى

وأقتحمَ الأمر الجسيم بحيث أن

أرى الموت خلفى تارةً وأمامى

ينتهى الدرج إلى بسطة تليها زاوية، باب خجول متوار، حجرة فسيحة، نقية الضوء، تبدو مصمتة، لكن بعد تدقيق أرى نوافذ وبابين، لا تظهر الفتحات إلا عند الحاجة إليها.

أتأكد مما وضعت يدى عليه، كل موضع يبدو كأنه الغاية، المحطة القصوى التى لا تليها أخرى، لكن.. عند لحظة معينة، موضع بعينه، ربما مع الحركة، مع النظرة، مع حلول خاطرة وافدة، مع بلوغ نفس معين إنْ شهيقًا أو زفيراً، ربما مع دفقة قلب. تُرى.. كم دقَّة، كم خفقة منذ رجفة الأولى حتى رعشة الأخيرة، هل يمكن الإحصاء والتدقيق مع مراعاة التمهل والهروع خاصة عند تحقق العشق؟

مع توالى الأنفاس تظهر الانفراجة، تبدأ الصلة بالمرحلة التالية، هكذا يتقدم المكان مصحوبًا بالزمن الخاص به. تولد الغرفة من سابقتها، يخرج الممر من الممر، ويلى الدرج شبيهه، هكذا يمكن

الاستمرار إلى ما لانهاية، أو . . إلى حد معين يصعب التنبؤ به، بل إن بعض الأماكن توجد بمجرد التفكير فيها، وتختفى مع اضمحلال التصور، هكذا تتباين المساحات طبقًا للحالة النفسية التى يمر بها المرء. فإذا كان مغمومًا وعنده شجى تتقارب الأسقف وتدنو الجدران. وبحلول الفرح وتفجر النشوة تتسع الصالات ويبدو بعضها أفسح من ميدان.

رغم فرحى وانبهارى باكتشاف الخاصية لكن قلقا بدأ يسرى، أصبحت الآن أتوقع غرفًا أو قاعات تالية، هكذا يقوم ما تخيلتُ، ويمتد ما رغبتُ، فمتى المخرج؟

أين سألقى صاحبى أحمد الفلاحى؟

لا بد أن من سبقونى كان لديهم تصور محدد، مُسْبَق، يعرفون عددًا معينًا من الغرف والصالات والطوابق. أوصاف مدونة لا يستطيعون تجاوزها. لكن ما وقعت عليه، ما تأكدت منه لم يخبرْ عنه أحد.

أستعيد ملامح صاحبى، هل كان يعرف؟ هل اطّلع على ما بدأت أدركه منذ بلوغى أول الدرج؟ عندما بدأ يتراجع ليتركنى أتقدم وحيدًا، لماذا لم يطلعنى إذن؟ دائما ينظر إلىّ حائرًا، مستفسرًا. حجمه الدقيق، نحوله الهادئ، لحيته وعيناه العميقتان، كيف لم أنتبه إلى طلته الماضية إلى بعيد، كيف لم أنتبه؟

أتمهل . . كم مضى عليّ؟

تنبئ الساعة حول معصمي أنني أمضيت ساعة أوساعتين منذ ولوجي، لكن يمكن أن يكون ذلك اليوم أو أمس أو الشهر الماضي أو منذ عامين أو بعد سنوات!، للزمن إيقاع خاص. وإلا لماذا أوقنُ أنني تقدمت في العمر مدى، وأنه دُفعَ بي عدّةَ مراحلَ بعيداً عن لحظة ميلادي، جرى الكثير في الزمن القليل وهذا ما سيقع لي مرة أخرى في وضع أجلى وأوضح. أمضي بطيئا مستوعبًا ما يتكشف لي. خصائصُ وأحوالٌ لا تبدو إلا لمن عنده التمكن واحتمالات القبول. من يحدد؟ من يفرق بين من يتفقد البناء فلا يدرك منه إلا الجدران والقاعات والممرات والمنحنيات، وبين من ينشئ التكوين طبقا لما يتراءى له. لما يَردُ على مخيلته؟

لا أعرف، وما من إجابة شافية عندي، أو لدى صحبي من أهل عُمان، الذين عرفتهم على البعد، أو أولئك الذين اقتربتُ منهم مثل صاحبيّ الفلاحي والرجي، عند مرحلة معينة تفتحت لي طيقان أربع، كل منها توازي جهة من الجهات الأصلية، من إحداها كان الإمام بلعرب يتطلع في لحظات معينة فيرى الضفاف كلها قبل حوالي أربعة قرون. يجتاز الواحة المحيطة ببصره، والمرتفعات النائية أو الدانية، يبلغ ضفاف الأفلاج والأنهار الجارية والبحيرات الشاسعة والمحيطات الخضمّ، الضفاف الفاصلة بين اليابسة والماء، بين المحدود

واللانهائى، بين المدرك المعاين وما لا يمكن بلوغه. إنها الفوارق!، أدقق حتى أدرك مسارات كل تَطَلُّع تمّ عبر تلك الطاقة، بل وألم بالانعكاس الواقع على الحدقتين. أصغى إلى أصداء شهيق وزفير لعابرين قدامى. أبلغ قاعة النجوى. مستطيلة، ممتدة، لا يتم الجلوس فيها إلا لفرد، بشرط أن يصمت، أن يتأمل أن يطرق متأملا، مدبراً فحص الأحوال، فإذا خرج عن هذا الحال اختفت.

القاعة التالية للمفاوضة. كان الإمام بلعرب بن سلطان اليَعْرُبى يجتمع فيها بمن جاء لمشاورته، أو نصحه، أو مفاوضته، لا يكون بمفرده رغم أنه يبدو للقادم، الغريب وحيداً، ذلك أن الحجرة محاطة بخندق يكمن فيه حراس أشداء مدربون على الظهور المفاجئ عبر الأبواب المتحركة المخفاة بأبسطة فارسية. يظهرون عند سماع صوت معين فلا يقدر على ردهم أحد.

مكثتُ وقتًا غير محدود فى قاعة النجوى، لا أظن أننى بلغتُ مكانًا فى شتى مرات ترحالى يجسد الإحساس بالعزلة كما أدركتُ فى تلك القاعة بعداً قصياً، ونأيا موغلاً، لم أعرف هذا التوحد بالصمت حتى فى أيام سجنى بزنزانة القلعة المعزولة، هنا تَنْبَتُّ كافة الصلات. حتى لتكف الصور عن التدفق إلى الذاكرة، يتلاشى كل صدى.

دخول من باب، ودخول يليه، ما من خروج، لايتشابه ارتفاع

بآخر، كلّ موضع طابقٌ بمفرده حتى وإن كان موازيًا، كل غرفة أو ممر أو موضع ذو قياسات وزوايا مغايرة. كأنه غير متصل بما يليه مع أن الجدار واحد فى أحيان كثيرة.

لا أعرف كيف وصلتُ إلى قاعة الشمس والقمر، المؤكد أنها لا تلى غرفة النجوى. عبرتُ قاعات متتالية لا بد من المرور منها بسرعة، أحيانًا.. يجب الركض، ولكثرتها من الصعب استعارتها أو استرجاع تفاصيلها. عند الوصول لا يمكن للداخل إلا التطلع تجاه النوافذ الطولية، المزخرفة، الزجاج الملون المحيط بها المعشق فى الجبس ناصع البياض. تتوزع على مجموعتين، كل منها تضم سبعًا، متصلة، منفصلة.

سبع نوافذ للشمس

سبع نوافذ للقمر

ضوء الشمس الأصفر بكل درجاته لا يتخلل نوافذ القمر. ضوء القمر الأزرق لا يعبر فتحات الشمس، أما هسيس النجوم فينفذ منها كلها، يتركز فى ليالى غياب القمر حتى ليمكن قراءة كتاب دقيق الحروف.. هكذا جرى التصميم. وهكذا شاء المصمم، لكن.. هذا ليس كل شىء. إذ وضُحَ الأمرُ بحيث تكشف السماء من كل نافذة عن بعض مكنونها، فمن النافذة الأولى - شمسية أو قمرية - يمكن رؤية الأبراج كلها. ومن الثانية تبدو مجرة درب التبانة بما تحوى،

ومن الثالثة تلوح كوكبة الفرس كأنها فى متناول اليد، ومن الرابعة يمكن بعد تدرب وصيانة رؤية الأكوان الموازية . .

فى كل لحظة يتبدل الضوء ويتغير، من هنا تلوح درجات يصعب حصرها لكلٍّ من الأزرق والأصفر، أما دخول الشمس فيتم بهدوء خافت، لا تبعث قيظا ولا تنبع بحرارة، يكون الفرق شاسعًا بين ما هى عليه فى الخلاء الصحراوى المحيط، والفراغ الرطب، العفيف، اللطيف، المضموم، لا تتغير الحرارة ولا تتبدل إنْ صيفا أو شتاءً.

استعدتُ وقفة صاحبى الفلاحى. رعدةٌ سرتْ عندى. . بقدرما فيها من رقة، بقدرما تحوى من غموض. هل توقع أمرًا؟

يغمرنى الأصفر بصحبة الأزرق، يتدفق ليحتوينى، عند درجة معينة، تتشكل ملامحها موزعة على نوافذ الشمس، نوافذ القمر، كونيّة الطلع إذن، تلك الملامح لا تمت إلا لمن أخضعتنى لها عند السوق المغطى فى مدينة إستانبول. «جبرين» هناك، السوق المغطى. هنا. . لا فرق، تتضامّ الأمكنة عندى بعد ظهورها متنقلة بين النوافذ الأربعة عشر، مصوغة من لونين لا غير، تمامًا كما طالعتها أوّل بارقة، دانيًا من مشوقية قوامها، وأنوثية فيضها عبر الخلاء السحيق، لاغيًا كل ما عداه. طاويا كافة ما عرفت. .

سَعيرُهـا

إذا قُـدِّرَ لى قـيـاس الـوقت الذى اسـتـغـرقـه بصـرى فـى التطلع والرنو . . ثم المقارنة، سيكون الزمن الأطول من نصيب البحر وتلك الأنثى الفواحة فى درب الطبلاوى بالقاهرة المعزية، أثرى الله أيامها وأصلح أحوالها .

كنا نقطن الطابق الأول بعد الأرضى فى بناية حديثة نسبيا بالقياس إلى بيـوت الحارة المشيـدّ معظمهـا فى نهـاية القـرن الماضى ومـفـتـتح الحالى . تُعرف البيوت بأصحابها أو أشهر من أقاموا بها . اشتُهر منزلنا باسم وكيلة مـالكته، اسمها «أم كـوثر» . متوسطة الطول . ممتلئة، هادئة الصـوت، تجىء أول كل شـهـر لتـجـمع الإيجـار وترسله إلى صاحبة البيت المقيمة فى بنى سويف ولم يرها أحد، وقيل إنها مقعدة لا تقدر على الحركة . أما «أم كوثر» فتقيم فى حارة «بيرجوان» المتفرعة من شـارع «المُعز» والتى سكنهـا مـؤرخ المدينة الشـهـيـر «تقى الدين المقريزى» قبل حوالى ستة قرون . لسبب ما لا أطّلع عليه الآن صحبتُ أبى عصراً لزيارتها . كانت واجهة المنزل الذى تقيم به بيضاء تتخللها نوافذ خضراء .

يُعرف البيت باسمها حتى الآن رغم رحيلها وبيع البيت إلى ملاك آخرين، يواجهه بيت الباجورى، من طوب أحمر، بوابته من حديد أخضر، لا يفصله عنا سوى عرض الحارة، حوالى خمسة أمتار، مسافة يمكن عبرها سماع الحوار الدائر فى الناحية الأخرى بصوت عادى، فى الليل يمكن الإصغاء إلى أنات النائمين وهمهماتهم، إلى وقع الخطى وتدفق الماء من الصنابير عند الشروع فى الوضوء أو الاستحمام!

أربعة طوابق. .

الأول الأرضى، الخالى من الشرفات تقطن عائلة «أبوفريدة». .

الطوابق الثلاثة الأخرى يقيم بها أشقاء ثلاثة، ذكران هما حسن ـ مسحراتى الحارة، ومحمد، وأنثى هى عائشة، الأرملة، المقيمة مع أربعة : بنتين، وابنين أحدهما موظف بالمطابع الأميرية.

شقتنا تشرف على «أبوفريدة»، امرأته ـ أم فريدة ـ شابة، جميلة، عَفيّة، فتية، متمكنة، لافتة، تبدو أصغر سنًا من زوجها الذى يعمل بمصلحة البريد، كنت أتطلع إليها عبر فرجات النافذة الخشبية أراها ولا ترانى، أو . . هكذا خيّل إلىّ، إذ لمحتها مرات تنظر تجاهى وتضحك إما بصوت مرتفع، أو بهدوء ماكر، كأنها تعرف وتبلغنى علمها بوقفتى، تحرك مؤخرتها المتأججة.

اعتدتها، فى وقت معلوم، عصر كل يوم، ما بعد الخامسة، تفتح

النافذة، تشرف على الدرب، تمكث طويلا، إلى ما بعد الغروب، رغم محدودية المارة، ظهور الغرباء نادر، الحارة سد، لا تؤدى إلى مكان آخر، حتى الباعة المتجولون مألوفون، معروفون، بدءًا من محمد بائع الصحف إلى مصطفى الذى يظهر قبل الغروب، وراءه جَمَلُه المحمَّل بالذرة المشوى، مجرد التطلع عبر النافذة يتيح الفرجة، ويعنى التوق، ويسمح بتبادل تحية مع جارة أو حوار عابر، وعرض صامت متدفق لذلك الجسد الذى يرسل أصداءه بعد أكثر من ثلاثين عامًا فيشعل ويحرض. النافذة ذاتها هدف، تلك الفتحة المربعة أو المستطيلة دائمًا واعدة حتى وإن كانت لا تؤدى إلى شىء.

سرير منخفض عريض، أرقبها بَدءًا من صعودها فوقه، تقدمها على أربع، اتكائها بمرفقيها على حافة النافذة، هكذا يكتمل حضور خصرها النحيل وردفيها الرابيين، المجوهرين، يغوص الجلباب الرهيف بين شطريهما فيسفر ويشى، أما صدرها الناهض الأشم فيستريح إلى قاعدة النافذة، لمتانته وفيضه، تبدو كأنه تحتمى به، تقف خلفه، يتوزع ثراء معمارها على تكوينات عديدة، أدركها فى مجملها وليس فى تفصيلها، رعدتى المصاحبة لظهورها لم تتكرر عندى قط، لم تثرها أى أنثى رأيتها فيما تلى ذلك على البعد أو القرب. لكم توهمتُها، لكنها لم تتفق لى. ولولة شهوية، تندلع بمجرد فتح النافذة وظهورها، يعنى ذلك اتقاد البؤرة، ودنوى من سعير لا يهدأ. شيئا

فشيئًا توطدتْ الصلة بين جسدى وجسدها رغم استحالة التماسّ وانتفاء اللقاء، ومحو التساؤل والمجاوبة.

هويتُها. صرت إلى فلكها، أغلقُ باب الحجرة الضيقة، تتسع لسرير وصوان ومنضدة صغيرة أرصّ فوقها كتبى، أقول لأمى: إننى ماض إلى إغفاءة حتى يمكننى السهر ليلاً، على مهل أمضى إلى مرصد اطلاعى، لم تُخْلفْ ظهورها قط. فى توقيتها المعلوم تبدو، تمررنى بمراحل أتقنتها، منها: الترقب، والتوقع، والتهلل، والمقاربة والتمعن، والتوقد، ثم . . الهدد.

أوعرها الترقب، ما قبل ظهورها، ما يسبق صرير المصراعين عند انفراجهما، أمتعها استنفارى لالتقاط الأوضاع العابرة، مثل حركة جسدها عند تهيُّئها، تأودها، ميل قوامها.

لايصلنى بها النظر فحسب، إنما شتى الحواس، رائحتها، عطرها، عبقها الخاص يلتقطه أنفى بالبصّ. دنوت منها مرتين: الأولى فى الطريق عند إبحارها عبره ملفوفة فى الملاءة السوداء الطرية الحباكة، والثانية عندما زارتنا وقعدت بجوار أمى، وصافحتها مرحبًا بعينيها المكحولتين، تمكنت من عطرها، واحتفظتُ به سنوات طويلة، واستعدتهُ فى أماكن قصية، واقتفيتُه عبر أخريات لعل وعسى، وكلما وردت صورتها علىّ غمرتنى نسائمه، إشهارها أنوثتها، فيتجدد توقى كأنى أطالعها أول مرة، حركة يسيرة من ريانة

قوامها، من حضورها العسلى، تقلقلنى، أما مفرق نهديها ومنحنى كتفيها فيثيران ذهولى، ويبلغان بحيرتى المدى، وقد أبلغ مرتبة الحظوة، أو أهوى متسولا فى عين اللحظة التى أحتويهما بالنظر. . صرنا إلى توافق عبر المسافة، تتحرك فأتململ، تبرز عجيزتها فأسعى إلى الإحاطة. كنت دائمًا فى موقع رد الفعل لما تقدم عليه من تحركات يسيرة، محسوبة، حتى وقعت المباغتة عصرذلك اليوم الذى أطلّت فيه مبكرة قليلا، ذلك أننى اعتدت طوال شخوصى مناجَاتها بألفاظ رقاق، وكلمات لا تنطق إلا فى لحظات الانفراد وفقدان الزمام، فيما بعد حرصتُ على تدوين ما يُلفَظُ أو ما أصغى إليه. ليس فى لحظة نطقه فهذا محال، لكن. . بعد انقضاء المتعة وفض الاندماج.

كنت أناجيها، ألاغيها، أصفها، أحكى لها ما يتردد عندى. خطر لى ذلك العصر أن أطلب منها اتخاذ وضع يخرجنى عن مدارى، إذ تميل لتتبع ثقل ثدييها، مبرزة تقبب استداراتها. .

تجمدت شاخصًا ذاهلاً، كما تثبت ألسنة اللهب لحظة شبوبها قبل تدافعها يمينًا ويسارًا، فوجئت بها تُلبى، متقنة الحضّ والترغيب، فى البداية ظننت الأمر صدفة، عندما نطقت رغبتى فى جلوسها قعدت، وعندما رددت بدون نطق لهفتى على رؤية مقدمة ركبتيها الريانتين راحت تحسر الثوب!

لم أنطق بحال إلا واتخذته، ولم تَجُلْ بى رغبة إلا ولبتْها.

هكذا . . ترسَّخَ عندى منها اعتيادى على البعد ، حتى انتفى عندى القرب . أو صوتُ أتذرى عند تحققه بحثًا عن بُعْد مغاير ، خاصة بعد أن تماديتُ معها فأطلعتنى على ما أشعل عندى جذوة نادرة .

حتى وقوع ذلك كنت قانعًا بما تيسر ، عاشقًا لما تسفر عنه ، راضيًا بالمُتاح ، فَرحًا بطلاّتها الحذرة نحوى ، إدراكها أننى أراقب وأتمنى وأرغب وأفعل بلا فعْل !

إلى أنْ أقدمتُ فطلبتُ التجرد ، مَدَّت ذراعيها ، جذبت مصراعَى النافذة قليلاً . ما تبقى من انفراجة يتيح لى الطلة والتمعن . تراجعتْ بتؤدة وعيناها إلىَّ ، أدركنى ملمس نظراتها ، أزاحت الحمالة اليسرى ، ثم اليمنى ، بدا نهداها رائعىْ الاستدارة ، شديدىْ التطلع . لهما وقفتهما الشماء ، انحسر الثوب فبدا محل التكوين وصوان الحياة ، عمارتها صاعدة وأساسها مدكوكا ، راسخًا .

صرت إليها وعندى دفء بدأ تصاعده بلا تراجع ، حتى اكتمل شبوبه فصرت أتنفس لهبًا ، ولم يكن ثمة بديل لإيقافه أو الحدّ منه إلا التجرد تماما مثلها وتجاوز كل عقبة ، وعبور الفراغ ، وطلب النجدة . .

مُـوريـليّــة

مـا بين ذلـك العـصـر الذى تنفـسـت فـيـه لهـبًـا، وبين انـدلاع تلك الشواظ مرة ثانية، واحد وثلاثين عـامًا. وأكثر من عشرين ألف كيلو مترًا، فى الاحتراق الأول تذريتُ وتناثرتُ لهبًا، وفى الثانى تلملمت وبعثت. .

عند كمونى وتطلعى فى درب الطبلاوى جرى الرحيل بالمخيلة، بتـوالى الأحـلام والرؤى. إلى أين؟ لـم أكن أعلـم وقـتـئـذ. مـتى وكيف؟، كنت خلواً من الخطة، لكننى متوثب، متأهب للانتقال.

وقتئذ لم أسمع بمدينة موريليا، لـم يجل بخاطرى بلوغ المكسيك، ربما تردَّد البلد عندى من خـلال فـيلم شـاهدتُه فى سـينمـا الكواكب بالدراسة عن زاباتا زعيم الثورة.

بعد مـا يقرب من ثلاثة عـقـود وصلتُ إليهـا بعد سفـر دام يومين تقـريبًا بـالطائرة ثم بالسيـارة من العـاصـمـة إلى المدينة التى تقع وسط البلاد، للطريق المؤدى خصوصية لم يكن صعبًا رصدها، خاصة أننى فى بلاد نائية قد لا أبلغها مرة أخرى.

لحظة دخولى ساحة الفندق العتيق دُهشْتُ وارتحت، أما الدهشة فلرؤيتى تلك الأقواس الحجرية، والحديقة الداخلية، وتنوعات الضوء، تمامًا مثل المسافرخانة، وبيت السحيمى، أو منزل جمال الدين الذهبى، عناصر مشرقية جاءت مع الأسبان الأندلسيين. يفنى الوجود، تختفى الألسنة، تتبدل اللغات. لكن تبقى عناصر العمارة. . آخر ما يَفْنى ويتبدل، صرت مؤتنسًا بالأقواس، بالحنيات، المقرنصات والحجرات ذات القباب.

يبعد المركز الثقافى حيث تعقد الاجتماعات سبع دقائق مشيًا، استفسرت من زملاء المناسبة والمرافقين عن ظروف المدينة، وإمكانية التجوال ليلاً، نصحت بالحذر بعد الغروب، ليس بسبب اللصوص فقط. إنما لنشاط بعض الجماعات الثورية المعارضة، ذاتَ صباح استيقظتُ على أصوات حادة عبر مكبر صوت يدوى. كلمة «ثورة» بالإسبانية تنطق منغَّمة، ممدودة، حازمة، وكلمة «سلفادور». فارقتُ فراشى. فتحتُ النافذةَ حذراً، بلاطات الطريق حجرية وجزء من الرصيف المقابل. مرقت عربة جيب بسرعة، يقف إلى جانب السائق شاب يرتدى ملابس شبه عسكرية، يلوح بيده مهدداً.

ما بين استيقاظى ورؤيتها أربع ساعات وعشرون دقيقة.

بعد وصولى إلى القاعة وبدء إصغائى إلى الترجمة الفورية لحديث كاتب فنزويلى رصدتْ حواسى حضورها، عطرها نفاذ. يمت إلى

عبير أم فريدة القديم المتشح بالعصارى، رائحةٌ مصدرها الكينونة، الملامحُ، طريقةُ الحديث، سبيل الإيماءة، ليس الشعر وحده، ما بين الإبطين، أو الفخذين، ليست المسام أو امتصاص الملابس الداخلية لما يصدرعن الجسد مرمريّ التكوين.

تطلعتُ متجاسراً. خارج ديارى أصير إلى جرأة أشد. الحياء أمر جُبلْتُ عليه وكان له عندى آثار شتى ربما أفيضُ فى وصفها يومًا، لكننى عند السفر أقْدم على الفور، بل أسعى وأختلق الفرص. ربما لخروج عن دائرة مؤطرة، وأعراف غير مرئية، وأمور فاعلة لفتتها منذ صغرى واستقرت عندى، تؤثر فى محيطها الأول.

حدقت لأستوعب.

قعدتها مَهْرَوية، لدماغها شمخة، ولنظراتها زهوة المقدمة. تعلن عن مواجهة لا تنتهى مع مجهول لا أراه. صريحة الطلاوة.

تجاوزت المنصة والترجمة الفورية والحاضرين من أقطار شتى. صرت إليها، وعندما تلقتْ قدرا غير يسير منى التفتتْ فلم أنسحب، أودعتُ خلاصتى فى نظراتى، توقى وسائر نزوعى، وحنينى المتصل إلى التمام، ابتسمت فجاوبتنى، وَقَعَ الاتفاقُ، أيقنتُ، تأهبتُ فالمقام عابر والوقت المتاح قصير، فى مثل هذه الأحوال يصير الزمن إلى إيقاع آخر وتقييم مغاير، هذا أمرخبرته. ما إن ارتفع تصفيق الحاضرين حتى أشهرت آلة التصوير. مستأذنًا. أشارت:

«ليس هنا . . ليس هنا . . »

فى الطريق إلى خارج القاعة، قالت إنها أصغتْ باهتمام إلى ما تحدثتُ عنه مساء أمس، إنها طالبة دراسات عليا والتاريخ تخصصها، أصغيتُ مبديًا التجاوب وذهول يدركنى لذلك التماثل العجيب بين الجسدين الأشمين رغم الفارق والمدة، وقت تطلعى عبر النافذة الموصدة وتشييعى شواظ شبقى إلى أم فريدة، لم تكن «أدريانا» هذه وُلدتْ بعد، لكنها تحوى ذات القدرة على تطقيق اللهب الأوار عندى.

قالت إن هذا المبنى قديم، كان مقراً لإقامة الرهبان فى القرن السادس عشر، فى القرن الماضى تحول إلى سجن لفترة من الزمن ثم هُجر وتهدمتْ بعض أجزائه، واستخدمه البعض مخزنًا لقصب السكر، لكن فى السنوات الأخيرة تم ترميمه وتجهيزه، وتحول إلى مركز ثقافى.

لم يغب عنى حرفٌ مما نطقت به، لكن داخلى كان يتمرجل، بدت صاحبتها صامتة، لا أحتفظ بأى ملمح منها، لكننى أذكر توقفها عند بداية ممر طويل تحفه أقواس مؤدية إلى غرف صغيرة معتمة. قالت بضع كلمات بالأسبانية، أومأت ثم انصرفت، انفردنا.

تقدمتنى إلى سلم حجرى، حلزونى. ضاق الحيز فَقَوىَ علىَّ

عطرها، نفاذ، صمغى، سكَّرى، خطوط واستدارات أم فريدة، أنشبتُ نظراتى فى تأود ردفيها. وتموج نسيمها. انتهينا إلى سطح مرتفع عن سائر البيوت المحيطة، مبلط بالحجر، كاشف غير مكشوف، بالنسبة لى تركز العالم كله فى الحيز الضام لنا، راحت تشير إلى هنا، وإلى هناك، لكنها كانت تقيم عرضًا وترسخ عهدًا، استدارتْ فجأة. .

واجهتنى باكتمالها، بالحواس المستنفرة. ضاقت عيناها، صار الخطاب بالصمت.

«أفهمك. . وأعرف»

شيئا فشيئا أصبح لها ولى مكان وزمان لا تنطبق عليهما القوانين المنظمة لدورات الأفلاك، ليس مهمًا أننى فى مصر أو المكسيك، فى الجمالية أوموريليا، تحت الأرض أو فوقها، غابت ملامح القوم الذين نزلت بينهم، اسم الفندق القديم، والعربة الواقفة بلا خيول أو ركاب.

كم استغرق تحديق كل منا إلى الآخر؟

لا يمكن التحديد، كان علىَّ مواجهة اقتحامها المستمر، عيناها مركز، بقدر ما تبث من جرأة، بقدر ما تفيض بالشجن، لم تقلْ حرفًا، كأن الكلمات ترتد إلى داخلها بتأثير جذب هائل لا يمكن مقاومته.

تراجعت برأسها مبرزة صدرها النافر المستنفر، كأنها على وشك الخطوة الأولى فى مشروع تعيد به الأمور إلى أصولها، المواد إلى عناصرها الأولى، تقدمتُ خطوة. . دفعتنى فى صدرى.

قوية، أودعتْ عندى أثراً، بقدر ما فيها من حدّ، بقدر ما تحوى من استفسار وحضّ ودعوة، ظاهرها الهجوم وفحواها التلبية، تراجعتُ . . تقدمت هى، دفعتنى مرة أخرى، مرة ثالثة، إما الردّ أو التوارى، غير أننى كنتُ أصغى إلى ذلك الشواظ القديم والذى ظننتُ انطفاءه إلى الأبد، كان يشتدّ مستدعيًا كل لحظات التوق التى مرتْ بى.

أشهرت إصبعى، دفعت به إلى صدرها، آهة ألمها، توجُّعٌ هذا أم لذة؟ شدت شعرى. أمسكتُ بمعصمها. ثنيتُه، دارت مضطرة منحنية لتسلمنى بتكوينها إلى الذهول الأتمّ والهذيان البعيد. اضطرم اللهب الذى دفعنى إلى الفراغ ذلك العصرَ البعيدَ وكان حداً أنهى طلاتى على جارتى الفياضة، لم أعبأ بشىء، البعد يشجعنى. وقصر الوقت المتاح يدفعنى، ودفئها يحيلنى إلى عناصرى الأولى، أما عتاقة المكان فتضفى قدراً من الإقدام والغواية لم أعرفهما من قبل.

مدوية عاصفتها، تسعى إلى الاتحاد بالانفصال، تبغى الامتزاج بالتنافر، آلمتنى أظافرها وأوجعنى خدشها، لكنها لم تقدر على التخلص من الوضع الذى دفعتُها إليه، وعندما أسفر جسدها عن

حنْية، رأيت ما تدليت من أجله يوما، هكذا جرى انبتاتى عن سائر لحظاتى. تركز حضورى كله منذ تخلقى جنينًا إلى تلك اللحظة إلى ما لم أعرفْه بعد، تركز فى دفعى مدارى للاتحاد بمدارى. فى اكتمال تكوكبى بها، وتطلعى إلى اتساقها، وحلاوة مصادرها. تضامت سائر المسافات، واقترنتْ الجهات واللحظات الماضية بالآنية وأصغيت إلى أصوات قادمة من بعيد كانت واهية من قبل. ونفذتُ إلى أسرار لغات شتى بدون ترجمان، ألغيت تحفظاتى كلها. وبددت محاذيرى كافة، صارتْ مقصدى وعطرها هويتى، وصرختها عند بلوغ أوج متعتها ذروة تحققى، شقت الفراغ الضامّ لبيوت المدينة وسرت إلى الجبال القريبة. وإلى أيامى الأولى، تلك العصارى. عندئذ أفْلَتُّ من كل مدار. صرت إلى خلق آخر . .

بلوغ الأسباب..

يبدأ سعيى حين أظن وصولى إلى نهاية مطافى، عندما أشارف اليقين باكتمال الخطى تبدأ الرحلة غير المتوقعة فى سياق الظن. بعد اجتيازى الخمسين صرتُ أتعلق بالعصارى ومشارف الغُروبات، حلَّت بى رؤية وداعية، فكم من كتب أنظر إليها مستقرة فوق أرفف مكتبتى، أعرف أننى لن أطلع عليها، ما يعبر بدائرة بصرى أقتفيه، كأنه نهاية ما أتلقاه من صور.

يختلف الوضع عما كنت عليه أول زمنى، عندما كان الحال الغالب علىَّ شروقيًا، آمالى متوالية وتطلعاتى مسفرة، لكم حلمت وتمنيت الرحيل، وعندما بدأت أسفارى صرت أشرق وأغرب خلالها، إذ وصلتُ أفقًا مددتُ البصر إلى ما وراءه، وإذا بلغت مرسى تهيأتُ للحظة إقلاعى منه. ثم بدأ توقعى لإقلاع غامض. مجهول الغاية، لا يسمح المجال بتقصى الأحوال. إنها بلا حصر. لكننى أقوى إن أمرى أصبح كابيًا، غامقًا.

ذكرتُ فى تدوين سابق هيامى بالموسيقى التركية، والغناء الشجى

لأهل تلك الديار، تجد المقامات سبلها إلى روحى فتثير وتُقلب، إلا أن المعانى فى تجريداتها المنطوقة كانت تستقر عندى.

حدث بعد رحلتى التى أشرقتْ علىّ فيها منبع اللونين، الأصفر والأزرق، التى طلعتْ علىّ فى جبرين وجرى لى بسببها ما جرى. حدث أن أهدانى صاحب حميم شريطًا لحفل موسيقىّ بعد عودته من «قونية» وزيارته ضريح مولانا جلال الدين.

جوق من رجال ونساء، يقفون فى صفوف ثلاثة متتالية، عازفون يجلسون إلى آلات أعرف بعضها وأجهل الآخر. قائد الفريق عجوز، مهيب، أشيب الشعر، يشير بيديه مباشرة. بما يمتعنى كثيراً متابعة الصلة بين أصابعه ومسارات النغم.

تستعرض آلة التصوير الملامح على مهل، أصابع العازفين، جمهور المستمعين، ما أجمل أن أسمع وأرى وأدقق، ما هذا؟

هى..

باختصار دال، مكثف.. هى

آلة التصوير لا تتوقف عندها، إنما تتمهل أمامها، تمتشق الهيبة، لوقفتها شمخة تمتزج بنعومة فيضها الأنوثى، انضباط قوامها، شروع ملامحها، مجمع لأمكنة عرفتها، ولحظات مررت بها، ونواصى حنين توقفتُ عندها، وأزهار لا يمكن نسبتها إلى فصيل. حاوية،

متناهية، مفرداتها مقتطفة من سائر تموجات الجمال، وتدرجات الجلال.

صرت إليها موقنًا إن وضعى تقلقل. ذلك أن ما تعلقت به صورة، علامة على وجود، وليس الوجود عينه، أعدت الكرة مراراً، أوقفت الشريط عندها، أبطأت دورانه، أسرعت منه، أقترب، أبتعد إلى الخلف، أتوقف عند مسافات مختلفة، أما النغم الذى تشارك فى إنشائه فامتزج بى، لا أقول حفظته، إنما انتهى إلىّ، صار يصدر عنى، أتقلب على مقاماته، وأخطو على إيقاعاته، أنام وأصحو على إنشاده، أقوم فى أوقات مختلفة من الليل لأدير الشريط.

من؟

أين الآن.. بالضبط فى هذه اللحظة؟

ماذا تفعل؟

لا أعرف عنها إلا صورتها ضمن المجموع، حضورها الذى استعدته مرات. كتمت أمرى عن صحبى الأقربين لغرابته، إلى أن بلغت الحد الباعث، المحفز، ذلك أننى قررت أن أبلغها.. يكفى ما ضيعتُ، هذه الإخفاقات المتتالية التى تثقلنى.

لكن.. كيف؟

كيف وأنا لا أعرف اسمها، ولا عنوانها، ولا لسانها. محيطات

أكيـدة، إلا أن مـا بدأ عندى أقـوى. أمضـيت جل عـمرى فى التـعلق بخيـالات شتى وأنفـقت فى استـدعـاء الصـور وتمثل الرؤى أكثـر من اتصـالى بالمحسـوس ودرايتى به، الوقت المتـاح بالتـأكيـد أقـصـر من المفقـود. إذن. . فلأشرعْ، أن أعبر الموانع أيا كانت، ربما أجمع بعضا مما تـذرى منى، أن أعـيش تلك الوثبـة بعـد توهمى عـجـزى عنهـا وكلالى، وبقـدر ما يعـصف بداخلى من هوجات بقـدر ما بديت لكل ذى قـربى هادئًا، راسـخًا، ثابت الظل بعـد تبـاطؤ خطوى، وطول إطراقى، وشدة إمعانى.

بتأنٍّ رحتُ أنهى بعض العلائق وأجمد أخرى، وأصفى ما أقدر عليه، قلبتُ كافة الممكنات التى لا تساعدنى على السفر إلى إستانبول مـرة أخرى، أقـصـر الإقـامة فـيـهـا مسـتـوراً، آمنًا حـتى أصل إليـهـا ويخاطب لسانها لسانى.

لعلى أبلغ الأسباب.

طرقتُ الأبواب كـافة، طلبتُ المساعدة من أصـحـاب قـدامى لدى بعـضـهـم صـلات بمنشـآت ذات عـلاقـة بتـركـيـا، لكننى لـم أصل إلى شىء، إلى أن تلقيت جوابا على رسـالة كتبتـهـا إلى عزيز عرفته زمن الستينيات فى منتديات القاهرة الثقافية، خاصة فى الطابق الخامس من البناية رقم سـبـعـة وعـشرين بشـارع عـبدالخـالق ثروت، والتى كـان الراحل يحيى حقى يتـخذ من إحدى غرفها مكتبًا يلتقى فـيـه بمريديه

وصحبه. يُصغى إليهم ويُبدى حُنواً ورعاية لمن هم فى البداية بصبر وطول بال وقدرة على توصيل الفائدة بغير تقتير.

فى مكتبه لقيت «أكمل أوغلو»، توثقت علاقتى به، إلى أن رحل من مصر إلى بلد أجداده، وإنه انتهى إلى إدارة مركز علمى للدراسات والفنون الإسلامية، وجرت بينى وبينه مراسلات على مدد متباعدة، وكان ممن طرقت عتباتهم.

أبدى ترحيبا، دعانى إلى القدوم. أما الحديث عن أى أمور أخرى فمؤجل حتى اللقاء، هكذا أقلعت صوبها، وعندما رحب «أكمل» بى، وصحبنى إلى مطعم يطل على البوسفور، منه يمكن رؤية مدخل مسجد رقيق التكوين، منمنم المواشى، حزين الحضور، ينبعث منه صوت مؤذن مُلتاع، مُصوب مباشرة إلى سائر الفضاءات العُلى.

لم أخْف عن صاحبى أمرى، بسطتُه مباشرة، قلت إننى خرجتُ من موطن أهلى، وموطن صحبى، وحدتُ عن تراث أيامى بسبب صورة لشابة أجهلها، غير أننى عاقد عزمى على الوصول إليها، وليس قدومى إلا الخطوة الأولى تجاهها. لم أصحب فى حقيبتى إلا بعضاً مما يستر أيامى الأول، ومن مكتبتى التى أنفقت جوهر عمرى ومالى فى جمعها، صحبت أربعة كتب لا غير اعتدت أن تكون معى أينما توجهت، القرآن الكريم، وألف ليلة وليلة، وديوان الحماسة لأبى تمام. ونهج البلاغة لسيدنا ومولانا على بن أبى طالب. هذا حسبى.

لا أعـرف مـاذا يمكن أن يقع لى غـدًا، غـيـر أننى مـقـدم، باذل للجهد، غير وجل لعلى أجد فيها منتهاى، إذا وفّقتُ أكون بلغتُ وتحققتُ، إذا تعثرتُ يكفينى الإقدام وتجنبى ما عرفته من ندم.

تعجب صاحبى غير أنه تعاطف وتفهم، قال: لا يغير مصيرَ إنسان إلا امرأةٌ لكنك تتبع صورة.

قلت: إنما أخرج منى إلىّ.

قال مبتسمًا: ها أنت بعد بلوغك الخمسين يمكن أن تصير تركيًا! ارتعدت. كأننى أدرك ذلك للمرة الأولى، كدت أنطق بالنفى الموثق، المؤكد، لكننى صمتُّ، لم أقل: إنّ دارَ مولدها وإقامتها لا تعنينى، ليست القصد، إنما أسعى إليها لو هى هنا أو هناك، صينية، هندية، روسية، أفريقية، كردية، جركسية. كردية أو من بنات المايا، شرقية أو غربية، جنوبية أو فوقية، تحتية، أرضية، أثيرية، قديمة أو . . محدثة، ما يعنينى «هى». الصورة تمت إلى زمنى، إلى وقت يحتوينا معًا، فى كوكب يرحل بنا عبر المجرة، كيف لا أسعى وهى جارتى فى الوقت أما المكان فحيث أخطو . . كيف؟ كأن صاحبى أدرك عنى. أطرق ثم اقترح علىّ الالتحاق بعمل مؤقت يحتاجنى فيه، ويكون نواة مرتكزى، يتمثل فى إشرافى على الطبعة العربية من النشرة الشهرية التى يصدرها المركز.

لم يكن أمامى خيار، كنت أسعى هادئًا، ثابت الخطى كأنى ولدت

ودرجت وعشتُ هنا، لا أسفر عن أي اغتراب، إلا أن لُبَّ جذْعي كان قلقًا، فعالاً.

رتبتُ لحضور دروس عملية لإتقان اللغة، أقمتُ في فندق صغير يقع عند نهاية طريق منحدر، رتب لي «حقي بك» اتفاقًا ميسوراً مع صاحبه، ويوميًا نمضي معًا إلى المدينة العتيقة الرمادية الطلع. غروبية الملتقى.

يعيش حقي بك في هذا المنزل منذ عشرين سنة. تجاوز الثمانين. خبير بفن الخط، وله أعمال في المتحف والمعارض ذاع صيتها، يشرف على صيانة الخطوط المنقوشة في حجر القباب والمداخل والحنيات وحول حضور المآذن، مُلّم بمخطوطات مكتبة السليمانية، هدفه.. إيجاد مخطوط قديم لتائية ابن الفارض بخطه، يحفظها، يرددها بالعربية الفصحى الناصعة المشوبة بلكنة أعجمية، يعرف المدينة القديمة كما أعرف الجمالية، له عند كل ناصية وقفة، وأمام كل مدخل قديم شرح، وتحت كل قبة تأمل، وأمام لوحات الخط هياج وتطريب.

هُو من دلني على مقهى «على باشا مدرسة» الذي صار بؤرة وجودي، ومنطقي، يوميًا أجيء إليه، أعبر الممر الطويل، على جانبيه شواهد رخامية، ينتهي بعضها بعمائم، منها الكبير والصغير، وشواهد خالصة، أخبرني حقي بك أنها لنساء صالحات، مزرعة

حجرية للموت، نُصب حاضة على التذكر لدراويش وخدام طريقة ومن بلغوا من التجربة عتيّا.

تظلل الممر المعتق تكعيبة عنب، يتموج الفراغ بعبير الريحان ونعناع وليمون، ينتهى الممر إلى فناء فسيح، فراغ منظم، مؤطر، فى نهايته مدخل القبة الأصلى، المرتفعة، تحوى الجزء المغطّى من المقهى، فى الوسط حديقة ينبت منها صبار وشجرة تين، على الجانبين عنب يتدلى، يشرف على متاجر تعرض أبسطة ملونة، ربما كانت مقارّا وخلاوى للصوفية زمنًا، أستسلم لتقاطع الوحدات الزخرفية وتماثلها وتفرقها، تمتزج برائحة التنباك. سلوتى ومؤنس انقطاعى عن المواقيت.

قامتْ بينى وبين عمال المقهى وبعض رواده صلة، عرفت الأسماء والألقاب، ومواعيد النوبات، حدثنى أحدهم عن صاحبة المكان المشلولة، ورثته عن أمها، تعيش الآن وحيدة قرب مقام سيدى أيوب الأنصارى، لا عقب لها لكن.. من يدرى، ربما يظهر أقارب فى اللحظة الأخيرة.

أبدى حقى بك دهشته لارتباطى بالمكان ومعرفتى الدروب النافذة إلى ما يحيطه، خاصة السوق المغطى، لم أطلعه على زيارتى القديمة، وانفجار البهاء الأنثوى، أزرق، أصفر، وشروعى فى المكث لولا نقصُ الهمة، لم أخبره بظهورها فى حصن بعيد، غريب،

كدتُ أهلك فيه، بل إننى لم أستعدْ لحظة ظهورها، وحدوث دهشتى وروعى. مررت بالموضع عينه، لم أتوقف عنده، استعدتُ ما جرى وطيفُ سخرية يحلقّ عندى. هنا اتكأتُ وهُرعَتْ دقاتُ قلبى فى إثر بعضها، ما لى منبتٌ مقطوع عما جرى. عن اللحظة والوضع، لو قرأتُ عن مثيل لما مرّ بى ربما تأثرتُ به أكثر، أحقًا جئت هنا من قبل؟ أحقا نفس المكان؟. ما المكان إذن. . إذا لم يحدث مثولى به عين الأثر؟ عللت بهتى وانصرافى بحالى وشدة توقى، لكن . . ألن يلقى هيامى هذا عين المصير؟

أنفض الخواطر عنى، مالى أسبق الوقت؟ لماذا أسترجع سيرتى الأولى، مغادرٌ دائمًا للحظة الآنية، أستعيدها بعد زوالها، أو أتخيلها قبل وقوعها، يتنافى ذلك مع مشروعى.

أصغى صابرًا إلى حقى بك، يحدثنى عن أولاده الموزعين على أنحاء الدنيا، أحدهم صاحبُ مطعم فى أرلنجن بألمانيا، وآخر فى جامعة إنديانا بالولايات المتحدة، وثالث فى السلك الدبلوماسى بقنصلية بلاده بجدة، وابنة تعمل فى مؤسسة تعنى بالمخطوطات الفارسية، والتركية والعربية فى فرانكفورت. لم يتصور اقترانه بزوجة أخرى. يردد عند ذكر امرأته:

«كانت تريحنى . . كانت تريحنى جدا. .»

نطقهُ بالإنجليزية مشابهٌ لإيقاع كاتب مسرحى شهيرعرفته، بعد

رحيل زوجته ردد على مسمعي نفش الألفاظ ـ لكن بالعربية ـ وعندما أصغيت إلى حقي بك كأني أسمع الآخر بلغة مغايرة!

يبدو متحمسًا، متدفقًا، فسيح الخطى، لكنه يصمت أحيانًا، تتوارى لمعة عينيه، ينسحب بعيدًا رغم حضوره في مواجهتي، وقد يتطلع إليّ بكراهية، كان ما يعنيني اختيار الوقت لأبدأ استفساراتي، كنت أحفظ المعلومات التي ظهرت كمقدمة للشريط وخاتمة، تاريخ التسجيل ومكانه واسم قائد الفرقة، فرق الموسيقى الكلاسيكية متنوعة، أشهرها التي يقودها الدكتور «نفزاد» صديق «أكمل أوغلو»، جاءت إلى مصر. وأصغيتُ إليها في قاعة سيد درويش. جرى ذلك سنة تسعة وستين.

أصغي حقي بك، لمس كتفي بودّ، قال إنه سيخبرني غدا، لكنه في الموعد الذي حدده لم يجلس، إنما بقيَ ماثلاً، قال بلهجة آمرة، واثقة، وصوت مثقل بوقار قديم:

«قم!»

تساءلت بالنظر، كرر:

«قم!»

أجبته مستفسراً:

«إلى أين؟»

قال بثقة :

«إلى مبتغاك . »

مضيتُ خلفه إلى الميدان الفسيح . ما بين كنيسة «آيا صوفيا» ومسجد السلطان أحمد . ما بين العمارتين المتواجهتين ، المتناقضتين ، فراغ يضج بالصراع والتماثل ، اختلاف وتشابه ، قباب أيا صوفيا المتساندة ، الصاعدة ، أصل لسائر القباب العثمانية ، وما بينهما وقفت .

صباحٌ صحوٌ ، والساعة تمام العاشرة ، ومياه البوسفور قريبة ، والبصر يطالع الماضى فى الحاضر ، هنا يتم ذلك التمازج فينوء الفراغ بذلك الشجن الرمادىّ ، لم أعرف مكانًا مماثلاً إلا ميدان الرميلة ، ما بين قلعة الجبل ، ومسجد السلطان حسن ، مُضىّ الوقت على العمارة يضفى عليها ما يحاسب الحواس مباشرة ، أدركت ذلك بعد طول سعى .

إلى جوارى حقى بك . وقوم من جنسيات شتى . يتطلعون إلى الفرقة المصطفة فوق مسرح مكشوف ، العازفون يجربون آلاتهم . كان ترقُّبى مغايراً ، ولم أكن متسرعًا ، بدأتُ النظر إلى الرجال ، إلى العازفين ، إنما أردت تأجيل البحث خشية وقوع الخيبة .

أعرف بعض الملامح . .

عازف الطنبور.

رأيتُه، أيضا. . العود. ضابط الإيقاع، الكمان. .

هذا كله مجرد تمهيد. مطلع يفضى إليها. مواز لأيامى وشهورى وسنّى، لشوقى وحنينى وألمى واتباعى وصبرى وطول انتظارى قرب الأعتاب الفاصلة، هكذا. . بدا ما بينى وبينها قريبا، قصيا فى الوقت عينه.

هى. . .

هى. . .

ما بين وقوع بصرى على صورتها ورؤيتى حضورها ثلاثة شهور وأربعة أيام وستة عشر ساعة، خلال المدة تغير حالى. وحاد مصيرى. .

ها هى. .

لا يعرف أىّ من الواقفين، المصغين، العازفين، المنشدين، الشاخصين، المترقبين ما تعنيه وقفتى. ما يدل عليه شخوصى إليها، تعلقى بجمالها الصريح، بانبثاقها الأشم.

ما بين وقوع بصرى على حضورها، ونطقى أول لفظ المخاطبة، متجها إلى سمعها مباشرة بدون وسيط ساعتين إلا خمسًا وعشرين دقيقة، واجهت بهاءها بوجل، ودخلت دائرة سناها برهبة، إنى

لمدرك أهمية النظرة الأولى، لتماس حوافنا غير المنظورة. أعرف أن المصائر تتقرر فى البداية، وأن الصدّ أو القبول له بزوغ عند بدء التماس، أودعت ملامحى كافة ما أقدر على إبلاغه، الخطورة الأولى تحوى المضمون. وما يليها تفصيل، لم أكن فى حاجة إلى التدقيق، فما مررت به يؤهلنى للحضرة.

لم أبدل فى القول، ولم أعبأ بأى رقيب. لم أدَّع خلاف ما جرى، ولم أذكُرْ ما هو غير حقيقى، صرتُ صريحًا كالحليب لحظة انبثاقه من الضرع. أفضيتُ ببداية أمرى، وقوع بصرى على صورتها الناطقة، تقلقل حالى، ورحيلى فى طلبها، أصغت بدهشة بكر وانفراجة شفتين رقيقتين كادت تذهلنى، كأنها لا تصدق ما تصغى إليه ولكنها ترغب فى الاقتناع.

الصدّ أو إبداء السخرية كاف لمقتلى، غير أنها أبدت ما لم أتوقعه، ابتسمت برقة، وقالت إنها مسرورة لسماع ذلك وإن كانت لم تسمع بمثله ولم تقرأ، توقفتُ لحيظة، لمستُ صدرها بطرف أصبعها..

«جئتَ من أجلى؟»

أجاب حقى بك عنى:

«صدقيه..»

ارتحتُ لتدخله الحميم، إذ خشيتُ غضبه لإخفائى التفاصيل عنه،

لكنه بدا متعاطفًا، متأثرًا، قالت إنها تدعونا معًا إلى حفل محدود مساءَ بعد الغد، ستغنى منفردة، التفتت إلى سيدة عجوز، أصغيتُ إلى إيقاع اللغة، وتمكنتُ من مشهد ملامحها الجانبى وانبعث داخلى أنينُ ناى عتيق. أقلعت إليها غير أنها لم تعاود النظر إلىّ، كأننى لا أدخل فى مجال بصرها، وعندما بدأتْ تبتعد لم أتحرك، ظللتُ ممسكًا ببطاقة صغيرة موضح عليها عنوانُ المكان، كنتُ قَدَّمْتُ إليها قلمًا لا يفارقنى، مداده أخضر، أدون به الملاحظات والخواطر، خطَّتْ به الكلمات الدالة ثم أعادتْه إلىّ. قبضت عليه من حيث تناولَتْهُ ليقع اشتراكٌ حسىٌّ بيننا فى ملامسة غرض واحد.

هذا خطها إذن!

أين حقى بك؟

أين ذهب؟

تلفتُّ، مضيتُ هنا وهناك، لم أجده وداخلنى يقينٌ محيّر أننى لن ألقاه مرة أخرى، مشيتُ موزعًا بينها وبينه، طلّتها، ظهورهُ الهادئ، وقفتها الشماء، الحنين الذى يفيض منه عندما يتحدث عن أولاده المتفرقين بعيدًا..

حقًا له أبناء؟

لم يطلعنى على صورة أحدهم، من يدرى؟

عبرتُ كوبرى جلطة، آويت إلى مقهى تحته، مطل على مياه القرن الذهبى مباشرة، رائحة التنباك، ونرجيلات يلتفت حولها شباب قادم من أوروبا، يتبادلون التدخين، والاكتشاف، عندما بدأت أنفث الدخان تطلعوا إلى الحنكة والتجريب، ابتسمتْ إحداهن، بدا فضولهم، تطفلهم، غير أننى لم أبادلهم إشارة، كنتُ ساعيًا إلى الوحدة لأستعيد ما جرى، لأعيشَه من جديد، لأرى ما لم أشهدْه لحظة وقوعه، كثير مما يمر بى أو أعبره لا أكتشف أبعاده إلا بعد انقضائه. بعد بلوغى لحظات حاسمة يتحقق فيها المرام كنتُ أقيم حفلاً لا يحضره سواى، أجلس منزويًا فى مقهى، فى حديقة، فى موقع مطل على النيل. أنفرد بما جرى، بلحظات التلقى وتمام الاتفاق. تلك لحظات يطول الحديث عنها لذلك سأفرد لها وأفيض لكن فى غير ذلك التدوين.

مضيت أستحضرها، أتمثل سموقها، وانتشارها، غير نادم على شدة سعيى كنت أخشى دبيب فتورى الذى يبدأ مع قرب التحقق، واجهتُ سروة صفصافية، لحضورها لونٌ أخضرٌ زاه، لها ما قبل بزوغ الشمس مباشرة. أيضا.. ما بعد مغيبها، كذا.. لحظة اكتمال الفكرة.

بدأ سعى آخر..

اقتفيتُ حفلات الفرقة، والأمسيات التى تحييها بمفردها، ليس فى

إستانبول فقط، إنما فى أزمير، وبورصه، وأنطاليا، وأنقرة، وقونية، حيث مرقد مولانا جلال الدين الرومى، أصبحتُ جزءًا من فريقها وإن كنتُ منفصلاً. صار أمرى معروفًا لرفاقها، جرى بينى وبينهم لفظ مسموع ومرئىّ عند فتح الستار أو إسداله.

أثناء عودتنا من قونية، بعد وقوع بصرى على حضورها بثلاثة وثلاثين يومًا تبعتُها خلالها أينما ولتْ وجهها. دعوتُها ولبتْ. مضيتُ إلى المقهى مبكرًا، ساعة قبل الموعد حتى يمكننى التأهب والتمكن، أتمثل ظهورها، توقفها، بحثها عنى، ألثم يدها، أدعوها إلى هذا الركن المتين الذى اعتدتُ الكمون فيه، استدعى الرجل ذو الشارب الكثيف، كردى من ديار بكر، يبادلنى ودًا، يتحدث بإنجليزية متعثرة وبإشارات منطلقة، يطيل وقوفه أثناء تغييره الجمرات المشتعلة، يبدو مبتهجًا لظهورها إلى جوارى، لم يرنى من قبل إلا وحيدًا، أو بصحبة حقى بك، آه. . أين ذهب، ولماذا اختفى حتى من الفندق مقر إقامته.

بعد انصراف الكردى. بعد أن رشفتْ الليمون الحامض الساخن. قالت: « ماذا تريد منى؟ »

نفس الإيقاع، نفس التساؤل الحاضرّ الممهد للقبول، سمعتُه منذ عشرين سنة، عندما بادرتنى محبوبة ارتبطتُ بها زمنًا. لكن. . المكان كان هناك، على ضفة النيل فى القاهرة. قرب شجرة جميزة قديمة، راسخة، تطلعتُ إليها. تمامًا كما بدا رد فعلى من قبل.

«أنت . . »

لبيت طلبها، قصصتُ عليها كافة ما مرّ بى منذ رؤيتى صورتُها، كانت تضوى بألق داخلى أثناء إصغائها، وتعبير ثابت يصعب توصيفه، قالت فجأة:

«أين تذهب بعد لقائنا . . »

أبرزت بطاقة الفندق حيث أمضى الليالى منفردًا، مقطوعًا. حسم دال.

«اتبعنى . . »

إلى جوارها، دائمًا فى المقعد عينه، أنتظم فى مدارها. لها أريج البوادى، وعبق النواصى القديمة، قالت إنها متجهة إلى الجانب الآسيوى، صاحبة عزيزة تمتلك بيتًا من طابقين. على مقربة من حديقة فسيحة يتوسطها قصر جميل يطل على البوسفور. بناه الخديو إسماعيل ثم أهداه إلى الخليفة العثمانى.

ضمة شفتيها عند نطقها حروفًا معينة، ميل رأسها فى وضع التساؤل أمر يُلحق بى ذهولاً ويسبب محنة، طلّتها الجانبية تذهلنى، ذلك البهاء الحاوى للدلال والاستنفار وكبرياء، مس طفولى يمتزج بشذا أنوثتها.

حدثتها عن صاحبى «أكمل أوغلو» عن عملى فى المركز الذى كفل

بقائى من أجلها ، عن حقى بك واختفائه المحير ، قلت إن الغربة لم ترهقنى لأننى أعيشها دائمًا . وأقسى غربة ما كانت فى الوطن ، حدثتها عن دخيلتى عندما لبت موعدى . تمنيتُ لو أوقف كل من أعرفه أو يقع فى دائرة بصرى لأخبره بالنبأ العظيم ، أن أفيض على الآخرين ، أن أحقق بعضًا مما سعيت إليه ، استرداد حيوية الدفقة والبهجة ، فى زمنى الأول كنت قادرًا على استحضارها بالقليل من الجهد واليسير من الزاد ، مطلع أغنية ، انحناءة نغم ، هبوب نسيم ، تحرك غُصَيْن ، ملامح مجهولة عابرة . عطفة مؤدية ، أما الآن فلا بد من تغيير أشد لتحقق الانطلاقة ، لا بد من مفارقة ديار وعبور بَواد .

قلتُ إننى عانيت الغروب فى إستانبول ، تتوحد عتاقة المدينة باختفاء الشمس ، فتبدو اللحظة قاسية ، ثقيلة الوطأة ، قلتُ إننى لم أصغ إلى صوت يفيض بالشجن مثل الأذان الذى أستمعُ إليه فجرًا ، قلت إننى جئت من قبل ، ورأيت منها ما أثارنى فى حينه ، لم أخبر عن الإشراقة المفاجئة ، مرسلة الأزرق والأصفر وافتقادى الجذوة عند مرورى بالمكان عينه . المكان . . ما المكان؟ قديمًا كنتُ أردد ما يعنى ثبات الموضع وتغير الوقت ، لكننى أدرك متأخرًا أن المكان بزمانه ، المحل بوقته ، بما يحويه ، فإذا انقضى الحال ذوى المكان أيضًا ، حتى وإن وطئته نفس الأقدام ، واحتوته النظرات عينها !

تتجه إلىّ بينما العربة تستدير عند نهاية طريق منحن . . أعرف هذا

الوضع، عندما تريد الأنثى حسمًا، أن تبوح صمتًا، عيناها، ملامحها، تحويان من الحض والأمر والرغبة والرجاء ما لايمكن للمنطوق أن يبلغ به، ولأنها مقصدى فقد تهيأت، وكنت أنقل الطرف ما بين لحظتين.

وقوع بصرى عليها لأول مرة والنغم المنبعث من الفرقة الشادية.

دنوها منى الآن ورائحتها النضرة.

ما بينهما سعى.

قالت إنها اعتادت أن تُمضى وقتًا بمفردها فى شقة صغيرة يمتلكها صديق زميلها. شاذ جنسيًا، تقضى الوقت للتأمل، وقد يمر يومان أو ثلاثة بدون خروج، بدون أن ترى الشارع.

مشيتُ. ليس إلى جوارها، إنما أتبعها. تأخرتُ نصف خطوة، حتى أتمكن من استيعاب فراهتها، وامتدادها، وشبوبها. كنت مواجهها بمجرة أنثوية، ينتظم عبرها كل ما أرغبه. لكن حيرتنى إشارتها إلى زميلها. لماذا قالت إنه لوطىّ؟

لم نبتعد عن العربة كثيراً، نتجه إلى البيت، ربما يمت إلى القرن التاسع عشر، نوافذ مستطيلة خشبية، نقوش محفورة فى الجص البارز فوق الشرفات. تذكرت ميدان العتبة، فندق البرلمان، مبنى البريد، مبنى صندوق الدين، متجر صيدناوى. هذا الفراغ المصاحب لحضور القدَم..

تتقدمني. دهليز طويل. رائحة غامضة، رطوبة، أصداء بعيدة للحظات صعبٌ تحديدُها وموادّ يصعب تعيينُها، فناء داخلي يطل عليه أربعةُ أبواب، تقدمتْ إلى الباب المواجه للمدخل. صعدتْ متمهلة، شعرُها في لون الحناء، تمامًا كما رأيته أول مرة عبر صورتها.

لماذا أعلنتْ شذوذ صاحب المكان؟. حيرني ذلك، ينتابني الارتباك والقلق الغامض إذا حضر شاذ، عندما فتحت الباب انبعثتْ رائحةُ مُبيد قوى، استدعت إلى ذهني رائحة مماثلة مرتبطة بتابوت خشبي مفتوح عند مدخل بيتنا القديم، في انتظارجثمان والد جارنا. كان شيخًا عجوزًا، بارز الحنجرة، نحيلاً.

صالة ضيقة، حجرة واحدة في المواجهة، مرتفعة السقف، تطل مباشرة على الفناء الذي عبرناه، مكان قصيّ، معزول، كيف أعود إلى الفندق إذا غادرتُ منفردًا؟ أين ما أتواجد فيه عندما كنت طفلاً في الجمالية؟ هل خطر ببالي بلوغه؟ كان مخفيًا في تلك اللحظة التي بلغتها بعد طول جهد وخفق قلب.

تقف إلى جواري، ألتفتُ إليها، تتلاقى نظراتنا، ها هي مقبلة، مبادرة، لا تلتقي شفاهنا بل تمتزجُ ببعضها، تجوس يداي على ذراعيها، كتفيها، ظهرها، تحف بنهديها النافرين. يجرد كل منا الآخر. وعندما اكتمل بهاء عُرْيها تراجعتُ خطوة لأحتويها بالبصر.

سامقة، فارهة، متينة العمارة، بهية التقاسيم، نادرة الإيقاعات،

تستلقى متهيئة، تشير بيدها إلى حقيبتها الصغيرة. أفتحها.. عوازل طبية، لا يمكننى تقدير العدد حتى الآن. أغلفة فضية، كتابة باليابانية. تقوى رائحة المكان. ذلك المبيد.. يبدأ حظى.

تشير أن أقترب إذ رصدت بعضًا من تأخرى، تتحسس جسدى، تلثم عنقى، صدرى، تسعى كلها نحوى.. أتطلع إليها، إلى الفراش، إلى الحقيبة، إلى سجادة قديمة، إلى طرقها المؤدية.

أمن أجلها فارقتُ وحدْتُ؟

فَصنمُ العُـزى

يوم جمعة، رغم ذلك خرجتُ، أفضّل البقاء فى البيت، خاصة أول النهار، كسر العادة بالتأخر فى النوم بعض الشىء وإبطاء الإيقاع. لكنها الفرصة الوحيدة المتاحة لوداع صاحبة عزيزة. لا تجىء إلا مرة واحدة فى السنة لتقضى شهراً تقريباً.

قصدت منطقة الأهرام حيث تقيم فى بيت اشتراه ابنُها الوحيد، تحيطه حديقة مؤطرة بسور مرتفع. اجتزتُ الباب الخارجىّ حذراً، لم أر الحارس. وكنت وَجلاً من الكلاب التى أخشاها. ضوء شفاف يمت إلى لحظات بهجتى المستعادة، لا أعرفه فى فراغات مدينتنا إلا أيام الشتاء أو نهارات الصحو التى تتخللها نسمات متواصلة تُقصى الغبار. يعمق الألوان، خاصة الأخضر. على جانبى الممر الطويل المؤدى إلى مجموعات زهور بنفسجية يتوسط كلاً منها لمحة من لون أصفر، لسبب ما تذكرت جُسراً خشبيًا فى حديقة ما لم أستطع تذكر اسمها بالضبط. مجرى صناعى رقراق. أوراق بردى. زهور اللوتس المقدسة، وأقباس أخرى من نباتات أجهلها، أشجارالبرتقال مثقلة بثمار لم تقطع بعد. بعد منحنى تبدو بوابة تتخلل سوراً أقل ارتفاعًا، هل رأيتهُ من قبل؟

أتوقف، لا يمكنني التحديدُ، رغم سرعة مرور الوقت، فإن اثنى عشر شهراً ليس بالمدة القصيرة وإن كانت تبدو عندى فى مجملها كذلك. يتقدم منى شاب يرتدى حلةً سوداء وقميصًا أبيض منضبطًا. ربما يعمل فى أحد الفنادق الكبرى القريبة، أوالتحق بالخدمة قريبًا. يواجهنى بابتسامة حافلة.

«أهلا خالد بك. .»

أخرجت بطاقة تحمل اسمى وأرقام الهواتف الخاصة بى، قدمتُها إليه حتى يتبين الخطأ. نطق اسما مغايراً، ربما ينتظر شخصًا آخراً، جرت عادة صاحبتنا هذه أن تدعو معظم أصدقائها فى اليوم السابق على سفرها مباشرة. خلال الأعوام الأخيرة اتسعت صلاتها بعد استقرار ابنها فى مصر ودخوله إلى مجال الأعمال، تناول الشاب الأنيق، المشوق فى البطاقة، لم يتطلع إليها، دسها فى جيب سترته الأمامى، مد ذراعه قائلاً:

«شرفت سيادتك. .»

يقصدنى أم يعنى خالد المجهول عندى. ازدادت انحناءته، لم أقدر على التطلع إلى ملامحه، غير أننى لاحظت اختفاء الباب الخشبى. أين. . كيف عبرت؟ هل تغيرت كثافة الأشجار؟

ممرّ آخر غير مرصوف، حشائش طويلة محيرة، لم يظهر البناء بعد، تغير شامل وقع، درجة الضوء مخالفة، من وهج هادئ إلى

تألق حاد، اختلفت أيضًا درجات اللون الأخضر وجذوع الأشجار وطبيعة التربة. كانت في المسافة المنقضية سوداء ناعمة. أراها الآن حمراء. الاختلاف جعلني أحذر النظر إلى الوراء خوفًا من يقين غامض بدأ يتضح.

لا تمضي خطاي صوب البيت، إنما تنقلني من حال إلى آخر، أجهله في تفاصيله، لكنني ملمّ به في جملته، كأن شخصًا ما مرق إلى جواري وأفضى بما أنا ملاقيه ثم مضى.

الآن.. أمضي فوق أرض العراق، بالتحديد.. ضاحية من ضواحي بغداد، منطقة زراعية، مترامية التكوين. ناحية الرشيدية، لم أعرف كيف وقفت على اسمها، بالتأكيد لم أكن مأخوذًا بما أراه، فكأن بصري احتواه من قبل.

لم يكن النهر القريب ذلك المألوف لي، الحاضر عندي دائمًا وإن لم أمش بجواره، إن لم أقعد بجواره، أينما وليت وجهي في القاهرة، في أي مدينة أو قرية أو نجع، حتى في عمق الصحاري، غربية أو شرقية يدركني النيل. غير أن هذا النهر الساري على بعد يسير لم أره ولم أبحر عبره. لم أسمع به إلا في قصائد الشعراء، ومراجع الأدب القديم والتاريخ المندثر، حضوره أنثويّ، ربما لتأنيث اسمه «دجلة»! سمائي القاهرية بعيدة. أستظل بأخرى تبدو أعمق زرقة وأشد انبساطًا، ربما لندرة المباني المتجاورة، المرتفعة. أو لغلبة

الزرع، لم تكن اللحظة عينها، لا قبلها ولا بعدها، لا أعرف، لا أقدر على التحديد.

ثمة من ينتظرنى . .

زوجة لم أرها. لم ألتق بها من قبل، لم يخاطب لسانها لسانى، لم أصغ إليها بعد، مطلع على وجودها هنا فى بؤرة معارفى. فى مكان ما بين تلك الأشجار، تنتظرنى بعد أن رحت أجول فى الموضع، متعجبًا من كثافة خضرته، وغزارة أشجاره. لم أكن واثقًا من ملامحها، من صوتها، لكن ما أثق به فى بؤرة معارفى الجديدة أن اسمها «ثريا»، أقصدها بدون اضطراب، بغير الدهشة المتوقعة حتى مع انقضاء الأوقات، ومرور ما لم أعهده من قبل، توقفتُ عن العجب رغم انتقالى فكأن ما يجرى لى يخص غيرى. كأنى أرقب ما يجرى لذاتى، غير عابئ، كأن أمرى لم يتبدل، وعندما وقع بصرى عليها لم أمض إلى تأملها أو تفحص معالمها، ألممت بها فى جملتها ورغبتها لحظة وقوع بصرى عليها.

مستلقية على الحشائش الكثيفة. متكئة على مرفقيها، وثابة العينين، نصف جسدها الفاره ملاصق للأرض، أعلاها ينهض بميل، منفرجة الفخذين، مرتدية «الجينز» الأزرق وقميصًا فى لون السماء الصافية، تخترقه حلمتاها لتطلا بوجودها الأتم للمشهد كله.

فى حضورها توثب وتحفز. امتناع وحضّ. قبول ودفع. كل ما

فيها مركز، محور، أما عيناها الفسيحتان فمنهما الخلاصة وهما الأثر الباقى، لا أستعيد حضورها فى أى موضع، أى لحظة، إلا وتبدو عيناها أولا ثم تأتى التفاصيل، أما الصلة الكامنة بين شفتيها ومجملها فمما يطول الحديث فيه.

صيغت، كما أتمنى، كما أرغب، بل إنها حاوية، جامعة، فقوامها للمرأة الألف، ولون بشرتها الصفراوى الأشقر من القرطبية، وانفراجة شفتيها من محبوبة لم يرد ذكرها فى هذا التدوين إلاّ تلميحاً، لذلك نزل علىّ بَهَتٌ رغم وعيى البازغ أنها تَمُتُّ إلىّ، وأننى أنتمى إليها. رغم اليقين الداخلى إلا أننى اعتبرت البصة الأولى بمثابة البداية عندى، شرارة الانطلاق وبدء الرحيل، رغم أن وصولى اكتمل بإدراكى لها، وإن علمتنى الأيام أن الرحيل فى الوصول، والوصول فى الإقلاع. ولولا السفر لما كان الرسوّ، مع صعوبة تحديد أسبقية أيهما، تداخلتْ لحظاتى بأوقاتها. اجتهدتُ لإخفاء عجبى وتوقى إلى معرفتها واحتوائها. رغم عمومية إدراكى إلاّ أننى مشوق إلى التفاصيل. كيف يجرى هذا كله عبرما خيل إلىّ أنه هنيهات، مع أننى طالعت فى كتب الأقدمين ما يقرب من ذلك. وقوع ما يقتضى الكثير فى الزمن القليل، لكن. . فرق شاسع بين أن نقرأ وأن يجرى لنا ما طالعناه مسطوراً. خطرت لى صاحبتى المنتظرة، تمنيتُ لو أتيح لى وداعها. لكننى لست على يقين بإمكانية رؤيتها مرة أخرى. وهذا

أول هبوب من حالى الأول فى حالى الثانى يتعلق بموعد عابر، وليس بشىء من أمورى الثوابت.

كنت مستسلما، مدفوعًا إلى كافة ما يتفق لى، عبقها أثارعندى بهجة وحسرة، البهجة لفرادته والحسرة لأنه يدنو من فوح أدركته بعد طول كد حتى أننى فارقت الأهل والوطن من أجل صاحبته، وعندما اجتزت وتمكنت، وشارفت أدركنى ما خشيتُ وقوعه. حتى رجوت انصرافى وكدت أنوح لأنفرد. وعندما انْفَصَمَتْ العُرى، واستحال الوصل، لمت نفسى وشارفت على هلاك مبين. لكم بحثتُ عن ظلها بين الظلال. وإيقاع صوتها، وطريقتها فى نطق مخارج الحروف. لن أفيض، التذكر جالب للحسرات والأوجاع، عندما رصدت ملامح عبيرها لزمت، وإن تبينت فيما تلى ذلك خصائص تحقق لامرأتى البغدادية الفرادة والتمكن.

عطرها أولاً، أعنى ما ينبثق من جسدها. غير أن أعجب ما لاقيته منها تغير نسائمها تبعًا لأحوالها. تغيبُ روائحُهَا الجلية عند شرودها. وتقوى من تجردها واكتمال ألق عُريها وشبوب رغبتها، تمتزج بهبوب لطيف عند فرحها أو عبثها، تمامًا كمدخل دكان للعطور، قصدته مرارًا بصحبة والدى ـ رحمه الله ـ وكانت تربطه بصاحبه مودة، تعرف إليه أثناء صلاة الفجر فى مسجد مولانا الحسين، كان اسمه البلبيسى. عند شرودها أو استسلامها للحزن يلوح منها طيف المسك

الغامق. لكننى أسبق فلأتمهلْ، قبل الدخول إلى سرد أيامى البغدادية أتوقف عند البدايات، بعضها لا أستعيده إلاً وتحدث عندى رجفة.

تقترن الدهشة واللذة بالبدايات. أما الخضم فمفروغ منه، متداخل، متشابه يفسده التكرار. كل من عرفتهن أورغبتهن وأدركتهن بالمخيلة تحدد أمرى معهن منذ اللحظات الأولى، إنما الأمر ظهور مباغت، ثم تعقبه التفاصيل، والتفاسير، لا يعنينى هنا تمام الصلة أوانقطاعها. فكثيراً ما تكتمل النهاية مع تحقق الوصول.

البدايات ألاقة، مركزة، ساطعة، يمكن تحديد ما قبلها وما بعدها. أما النهايات فرجراجة، تستمر امتداداتها، وحتى مع وقوع الفُرقة، ونأى الإلف، يظل عنده ما يحرك المواجيد، ما يقضّ مضجَعه حتى لو انفرد تمامًا عبر الأقاصى. لحظة دخول أنثى مجال بصرى، لى.. مقاييسى الخاصة وأسباب جذبى المتفردة. كم رأيت جميلات بَهَرْن جمعًا ولم يحركن عندى ذبذبة.

ماذا يجرى لحظة تجلى المحبوب؟

هل يفد من الخارج؟ أم.. يخرج من الذات؟

هل يصل من مكان؟

هل يكتمل فى زمان؟

هل نولد به، وتبقى الملامح غائمة حتى يقع ما ينبه ويحرض ويدفع إلى التهلكة أحيانًا؟

لا أدرى . . وما من إجابة شافية، لكننى أحمد الله أننى مازلتُ قادراً على الطرح، كثيراً ما يكون التساؤل أبلغ . وأدل وأشفى من الجواب، ما أعرفه أن تلك اللحظات المشرفة حددت مراحل عندى، وأرست علامات، عشقت روعة الشروع عند توافق النظر، وتواصل المعنى بالمعنى بدون نطق . لكم استسلمت لنظرات آمرة، ساعية، حاضَّة، شارحة، داعية . ركنت إلى لحظات الصمت العامرة، الضاجة بالرغبة والتوافق . لكم أستعيد قول محبوبة سيرد ذكرها فى تدوين أخصصه لمن طالعتُ أسرارَهُن، وأخذتُ عنهنّ، وأخذوا عنى، بنفس إيقاع ربة النغم التركية .

«ماذا تريد منى؟؟»

الصيغة تساؤلية، لكن الجوهر تلبية، كنا نجلس قرب حافة النهر، تجمعنا خضرة ضوئية لحشائش ناعمة كوبر النعام، لحظة نطقها بالسؤال دبت حرارة عندى فاشتد أمرى وتأهبت لاختراق الفضاء وإخصاب النجوم فى مداراتها، أستعيد القدرة على الجمع بين الضدين مبهوراً، الظاهر المستفسر المشوب بلوم وتحذير وربما مسحة غضب . الباطن المجوهر، الحاوى للرضا والاكتمال .

زمن مغاير حوى حديث طويل لزمت خلاله الحذر . كان توجهى إلى محبوبتى القديمة تلك ممتزجًا بالمهابة، كنا فى بيتها، طابق مرتفع، نافذة مفتوحة تطل على ساحة مستديرة بالزمالك، لا تقع فى

مواجهتنا أى بنايات، تطلعت إلى السماء الدانية، وعندما عدت إليها بعينى، كانت تنظر إلىَّ بلوم صامت، ناطق . .

أشرت إلى جوارى الخالى . .

«تعالى هنا . . »

لم أعرف سرعة تتخلل مثل الحاجز الضيق الفاصل بيننا، انتقلت من موقعها حيث تواجهنى إلى جوارى، ملْتُ ناحيتها، بركْتُ بحملى كلّه على شفتيها . وقد حاولتُ التعبير عن تلك البداية فى كتابىَ « خطط الغيطانى » فليطالعه من يرغب .

أما البداية التى سبقها تمهيد استغرق أكثر من عامين فأعدت صياغتها فى دفترين . الأول يختص بالاندلاع وعدم التمكن وعنوانه « رسالة فى الصبابة والوجد» والثانى محوره اللقاء والامتزاج . ولثراء ما جرى أفردتُ فصلاً يصف لحظات هلاّتها . ضمنته «دفتر العشق والغربة»، ما يعنينى هنا لحظة وصولى بيتها فى موسكو، وتحركها فى الحيز الضيق لشقتها الصغيرة، وذلك الجمود المحير، الثقيل، حَطَّ علىَّ بسبب تحقق ما سعيت إليه زمنًا طويلاً وبذلى الجهد . غير أنها كانت زاهية الذكاء، شفافة اللماحية، مفردة فى كونى !

هى . . أكثر من فهمت عنى بعد الراحلة أمى مع اختلاف المنظور، وهى من دلتنى على ما لم أره من نفسى، ومن ذلك الشجن الغروبى، والدمعة المعلقة، والاندفاعات البكر، والدهشات الأولى، ونطق

الأصابع عند بهت اللسان. وبغتة ظهور التعابير الكامنة. لحظة البدء بها منفصلة عن كل ما عداها. استلقائها فوق الفراش. دنوى من وجهها، نطقها المنغم، المنعم.

«هل تريد الآن؟»

«لا. . لا ليس الآن»

دهشة أضاءت عينيها. سارعت موضحًا. مشهرًا:

«أريد من قبل. . ومن بعد. . »

عضت شفتها السفلى بسنيها الأمامين الأفلجين:

«رائع. . رائع. . »

وبدأ إنشادنا المتناعم، المتوافق، الساعى إلى الكمال، ليس بمقدورى الإفاضة، فالأمر عويص، وينأى عن قصدى هنا، وأخشى الإطالة فى غير محلها، لكننى أوجز فأقول إننى مع طوافى كله لم ألق أجمل ولا أكمل من لحظ بوح الأنثى بقبولها وسفورها عن رغبتها، بالنظرة، باللفظة، بالخلجة، بالشهقة، بالتنهيدة الحرى، وقد جربت هذا وأتطلع إلى المغاير لأعيش بدايات أخرى، لأجرى المقارنة بما يحويه رصيدى الزائل، النافد أبدًا. غير أننى مهما تمنيت أو تخيلت. فلم أتوقعْ قط ما وجدتُ نفسى فيه بعد اجتيازى البوابة.

بداية لم أعرف مثلها، هكذا وقفتُ أمام مَن أعلم وأجهل فى

الوقت عينه، يداى تلامسان خصرى، حاسَّة شمّى مستنفرة لتقبل واستيعاب روائح لم أعهدها، منها المنبعث عبر الحشائش المغايرة، والطين الأكثر بدائية، والهواء الآتى، وأنوثتها الفياضة.

استلقيتُ إلى جوارها، أنتظر حديثها متودداً بالنظر، من الواضح أنها تنتظرنى، فى عينيها دعوة وحض. من ناحية أخرى وجب لى التعلق، إنها مدخلى إلى حقيقتى الجديدة التى أجهلها. العجيب أن رائحتها المختلطة بالأرض والحشائش أججت رغبتى، حتى أننى لم أعد أعبأ. هكذا شرعت، هويت بشفتى محتوياً ارتواء فمها، دفعتُ لسانى إلى أقصى مدى، لم أكن أعانقها إنما ألوذ بها، أرتدّ إليها. أثارنى ما صدر عنها من أنين خافت، وشهقات مقموعة، وانفلاتات استثنائية. استفسرت هامسة بعد استقرارنا، متعجبة لما جرى لى، أليست بصحبتى الوقت كله؟ داريتُ حيرتى بإقبالى، دسستُ أنفى بين نهديها المرفرفين، لعبيرها شهقة الحليب الدافئ الخارج لتوه من الضرع، أنتبهُ لأول مرة إلى تشابه رائحة النطفة بالمنبعث من الطين الطازج، الطارح، القُلّب، المتأهب لتلقى البذار.

لملمت نفسها بسرعة، قامت، ترفع بنطلونها، عمارتها سامقة أما استدارتها فنموذج. قالت إنها تفضل مغادرة المكان، ثم قالت إنها تتمنى أن تعرف ما جرى لى. هذا يحدث لأول مرة، جنون.. جنون.

«لكنه جنون لذيذ . . »

طوال اتجاهنا إلى الطريق المرصوف كانت تغمغم وتهمهم، كنتُ قادراً على تفسير بعض ألفاظها، تأبى مفارقة اللحيظات المنصهرة بيننا، مرة تسألنى عما حل بى، ومرة تذكر حظنا الحسن إذ لم يرنا أحد، ماذا يقولون عندئذ؟ رجل يضاجع امرأته فى الحديقة العامة مع أن بيتهم قريب، ماذا يقولون؟

قلت إنها بدت فى لحظة مستفجرة، عندئذ قررت أن ألبى نداء عينيها، ألا أعبأ أو أهتم بالخلق كلهم. تردد بلهجتها البغدادية، أحببت إيقاعها، ألفاظ ظاهرها خشن، لكنها رقيقة الجوهر.

«مجنون قلبى . . مجنون عينى . . »

وعندما تحكى بلهجتى القاهرية، تبدو حروفها رشيقة حتى مع تعثر خطوها فى سمعى. قالت إنها تتحدث بها قبل أن تلتقى بى، لم أدر ماذا تقصد، أو ماذا تعنى؟، بالتأكيد ليس لقائنا فى الرشيدية، إذن . . متى جرى ما تشير إليه؟ حتى الآن لا أتبين ظروف اجتماعنا ثم ارتباطنا. لا بد أن ذلك جرى عند نقطة لم أتبينها تماما فى الماضى الذى يخصنى ويخصها، رؤيتى لها بداية عندى لكن ليست كذلك عندها، تتحدث عن لقاء وعن حفل زواج فى فندق كبير مطل على دجلة. وثلاثة أيام لم نخرج من الغرفة، لم نفتح الباب لطاقة الخدمة، فقط كنت أتناول صينية الطعام من خلال انفراجة الباب المحدودة، فى

وقت ما أخرجها. فيما بعد سمعتُها تحكى متباهية لإحدى صاحباتها . .

«أيام ثلاثة لم نغادر. . »

تخفض من صوتها فى إيحاءات دالة، كنتُ أنتظر مرور الوقت لأعرف وأتبين مساراتى الخفية عنى، ما أدى بى إلى تلك اللحظة فى البستان، غير أننى لقيتُ صعوبات. إقدامى على بعض الأمور حيرنى، كذلك ظهور أفعال لم أعهدها منى، فمن ذلك ما جرى بعد وصولنا إلى مكان انتظار العربة. درتُ حولها واثقًا، وقفتُ أنتظر، قالت بدلال :

«افتح. . ماذا تنتظر؟»

مددت يدى فى جيبى .

مفاتيح!

أولجت واحدًا منها بدون أن أنتظر أو أبحث أو أختبر، دار معى، غير أن ما أذهلنى قدرتى على القيادة وإتقانى وثقتى، أنا الذى لم أجلس إلى مقود سيارة عمرى كله، كيف أعرف الطريق ولم أره من قبل، كيف أدور عند منحنياته؟ أتمهل عند مفارقه، مع أن بصرى لم يقع على جانبيه من قبل، بل إننى مؤتلف مع كافة ما يحيطنى، متجاوب، منفعل بالمقام العراقى وأنّات موسيقاه الحزينة، لكم مسنى

ذلك النشيج المكتوم ونبهني إلى أن ما كان لن يكون، وأن الحياة تسرى طالما بقيت قدرة الشوق إلى لحظات منقضية، وأهداف كانت قاب قوسين أو أدنى غير أنها حادت. أصغيت إلى محمد القبنجى، وناظم وسليمة، ويوسف عمر، وأثارنى صوت صديقة الملاية واستحضارى الجنوب الصعيدى عبر بحتها الخشنة، تمايلت مع أنغام الجالغى، والعزف على الجوزة، ولم يفتنى الإصغاء إلى السنطور عصراً، دخنت النرجيلة وصار عبير التنباك الشمالى من معالم ذاكرتى، بل إنه اختزال روائح المدينة كلها. نمتُ فوق سطح البيت المحاط بحديقة مخملية فسيحة، توسدتُ ذراعى عارية فى ليالى الصيف، وكنت أحاط من خلال حواسى المترقبة بدبيب الشهوة فوق البيوت المستلقية تحت السماء التموزية الساخنة.

لم أطلع على ظروف ارتباطى بها، لم أعرف التفاصيل، لكننى أدركتُ من تلميحات وإشارات شتى أننا التقينا فى بغداد، وأنها واجهت مشاكل مع أسرتها. أحد أقاربها كان يريدها، وطبقًا للتقاليد فلم يكن مستحبًا زواج الابنة من غريب، وأى غريب؟ من ديار مغايرة. .

أصرّت . . يُدعّم موقفها استقلالُها الاقتصادى. تمتلك أراضى ورثتها عن والدها فى واسط، ومعملاً للنسيج فى المحمودية، ودكانًا لتجارة الحنة فى سوق الشورجة، وفى الأخير صار مقرى ومكثى النهارى، احتوتنى الظلال، ورائحة التبغ الطازج، والشاى الأحمر

فى الأكواب الصغيرة «الاستكان» وشراب الليمون الطازج، ولبن أربيل. لم أتهاون فى أى أمر يخصها، كنت أدير ما يمتُّ إليها بدقة وحساسية، وهى تفهم عنى.

لم أعرف الحناء إلا فى أيدى النساء أو متخللة شعورهن، لم أطلع حتى على شكل نباتها، لكننى هنا فى القيادية صرتُ خبيرا بأنواعها ومواعيد زراعتها وطرق طحنها، وحفظها، وكنت أشرف على تصديرها إلى بلدان شتى منها. . مصر، كنت أعرف آنيتى بدون الاطلاع على ما كان منى، أعنى ما يخصنى من زمن منقض هنا، أما زمنى الآخر أو الموازى. . لا أدرى فبدا لى بعيدا، كأنه يخصّ غيرى، غير أن هبوب صورة أبى أو إطراقة أمى أوسعى ابنتى أو ابنى هناك كان يثقلنى، ويثير شجنى، عندئذ تستفسر حانية. .

«إلى أين وصلت؟»

أبتسم، مشيراً إليها. يشير إصبعها إلى شفتى

«لا أحب ضحكتك هذه. . تُخفى بها أمراً. . »

«أنا؟»

تميل إلىّ. خصبة، دافئة، حنونة، والله لم أمل رحابة وجهها قط وغزارة عينيها، تفيض علىّ، أصحو فألقاها إلى جوارى. تتطلع إلىّ، خرجتْ من الصباح الباكر إلى الحديقة وقطفتْ الزهور التى تفتحت ليلاً. توزّعها حول وسادتى. تقول:

«لا بد أن تفتح عينيك على الجمال. .»

أجيبها صادقًا:

«وهل هناك ما هو أجمل منك؟»

تشير إلى صدرى، إلى عينى، إلىَّ

«أنت. .»

أعجز عن المجاوبة، أطرق، أفاجأ بها تنحنى مقبلة يدى. .

«ليس لى إلا أنت. .»

بعد لحيظات سكون تكمل

«أخاف أن تهجرنى. .»

أندفع إليها، أقبل أطراف كونها، أنحنى محاولاً لثم قدميها. يتواضع كل منا صوب الآخر فيقع الامتزاج السكرى، إذ أغادرها إلى القيسارية، أو لإنجاز عمل، أو إلى موعد ضرورى أتمنى العودة إليها، أكثر أوقاتنا ازدهارًا وتأججًا ما أمضيناه معًا بمعزل ومنأى.

ليال عشر فى منطقة صلاح الدين.

فى شقلاوة. فى حوض راوندوز شتاءً. فى البصرة صيفًا، ما اعتاد الناس الذهاب إليه صيفًا زرناه شتاءً والثلوج التى يهرب الخلق منها لجأنا إليها للانفراد، تلاقى منظورُها بمنظورى، تلاشى قصدُها

فى قصدى، غير أن ما استمر مؤلمًا، منغصًا، يقينى أن إقامتى مؤقتة، وأننى عابر إلى ضفة أخرى لا أعرف كنهها، أننى مقبل على سفر . . إلى أين؟ متى؟، لا أعرف، لا يمكننى القطع أو تبين النبوءة. كما جئتُ فجأة سأرحل فى خطوة، متى . . لا أدرى! حتى بعد وصول طفلنا الأول الذى أسميتُه أحمد، كان يشبه شقيقه هناك، يشبه شقيقه محمد هناك، بل كأننى أنظر إلى هذا فى ذاك، هل سيلتقيان يومًا؟ بعد وصول ابنتنا أطلقتُ عليها ماجدة، أصرَّتْ وتمسكتْ فارتحتُ إلى قرارها، نفس الاسم هناك. بعد بلوغ محمد السادسة وشقيقته الثالثة، عظم عندى الهاجس بدنوّ رحيلى. أخرجُ من البيت فلا أتق من رجوعى. حتى سألتْنى امرأتى البغدادية ذات صباح . .

«مالك تضمنى وكأنك لن ترانى . . »

حُشْتُ دمعى، أنزل الدرج فلا أوقن بوصولى نهايته، أبدأ سفرى إلى واسط أو المحمودية فكأنى أقطع اتجاهًا واحدًا، نافذ التدبير، أصغى إلى إيقاع نبضى فأوشك على رصد الخفقة التى لن تعقبها أخرى أو لمحة ناظر.

لم أطلعها على شىء من دخيلتى، ولم أنهها عن أمر، إنما كان عيشى معها سؤددًا مبينًا، خلواتنا الليلية. وتجددها الدائم، وقدرتها على استثارة كوامنى، لم ترقد إلى جوارى إلا بعد ارتدائها أنواعًا شتى من ثيابها الحريرية الهفهافة. تفننتْ فى اختيارها وشرائها من

متاجر بعيدة. تصرّ على الاستمرار حتى تلمح فى عينى الإعجاب والرضا.

لم تصدنى قط، ولم تهمل أمرى، سعت إلىّ فى أويقات انطوائى، واستغراقى فى تأمل أحوالى وتقليب شئونى. كانت تسبغ علىّ ما تفيض به، دفوعها قوية، ورسائلها لا تنتظر الفض، مستحيل إرجاؤها، ومن ناحيتى أقْبلُ لأرشف من عطرها الداخلى، وحنوها المغدق.

لنا نزوقاتنا المفاجئة، ومشروعاتنا المندلعة، ولحظات توحد كوكبية، أما أغرب ما صادفنى منها وما حيرنى، فإننى لم أقربها مرة إلا وجدتُها مثل البكر التى تعرف خضخضات المتعة لأول مرة، تستحضر ما فى الكون من جمال مهدر، مؤجل، عشتُ الأسواق من خلالها، اهتمامى بما استأمنتنى عليه، أمضيتُ فى الشورجة جل أوقاتى، والصفافير، وشارع النهر، وحرصت على هذا السوق الفريد صباح كل جمعة، كافة أنواع الحيوانات، أندر الطيور. تماما مثل سوق الحمام الممتد بين ضريح الإمام الشافعى وحتى ميدان القلعة، فيه الكلاب والثعابين وأنواع العصافير النادرة، وسائر ما يلزم من أطعمة الحمام وأدوات وأدوية. اعتدتُ شارع الرشيد، وأبو نواس، والسمك المشوى على لهيب النار، وأقمتُ الصلات مع أصحاب المقاهى وخادم ضريح سيدى عبدالقادر، والرجال

الساهرين على ضريح ومقام الإمام موسى الكاظم. وتأثرتُ كثيراً بمقام الشريف الرضى المواجه وداومتُ على الصلاة فى الساحة الصغيرة المضمومة الملحقة به. ولأننى انطلقتُ إلى المدينة من خلالها صار حضورها عندى أنثويا، للحدائق لون عينيها، والليل ينبثق من شعرها وغموضها، أما النواحى فللحد من رؤيتها. الحقّ. . أننى توحدتُ بها، صار حنينى إلى امرأتى الأخرى صادراً عن المهاجر المستقر، المنقطع، بل داخلنى الشك فى أمرى أحيانا فكأنى لم أعرف غيرها.

أحببت اسمى لنطقها به، واستفساراتها عنى إذ أتأخر قليلا، أما ليالى تواجدنا فأمدتنى بفيض أستمد منه وأستعين. عرفتُ غضبها مرتين لاغير. ورغم شدة انفعالها واحتقان حضورها فلم تَسْعَ إلى تصعيد أو مواجهة معى، إنما كانت تفرغ طاقتها فى أشياء لاصلة لى بها. ضربتْ الأرض بقبضتها، ثم انفجرت باكية.

عندما افتتح المقهى البغدادى قصدناه وأحببناه. كنا ننتحى ركنًا فى قسم العوائل. أدخن النرجيلة ونأكل التكة ونتطلع إلى النهر ونرقب طفلينا ونتعم بالنسمات. صباح جمعة استجبت إلى اقتراحها المفاجئ، أن نمضى لزيارة صاحبة لها تقيم قرب الرشيدية، زوجها ضابط كبير، أنشأ بيتًا من القصب، بناه على هيئة البيوت المعروفة بالجبايش فى الأهوار الجنوبية، فرشه بسجاد ياقوتى، وفى المزرعة أحواض لتربية السمك، وماكينة لرفع الماء من طراز قديم، عاينتها

فى زيارة سابقة، وتأثرت من تكاتها التى أعادت إلىَّ صوت ماكينة الطحين فى جهينة مسقط رأسي وهذا صوت مؤسس عندى، لعلى أفيض فى الحديث عنه إذا تحدثت يومًا عن الأصوات العالقة بروحي.

صباح مبهج، ضوء عذب، خرجنا متضامين، متقاربين، متوحدين، عندنا الرغبة فى احتضان الكينونات كافة. ملامحها مستقرة، مشعة، رحبة، لدنة، فوق المقعد الخلفى محمد وإلى جواره ماجدة يحنو عليها، فى اكتمالنا أمان لهما وتمام بهجتهما. استعدت غناء ليلى مراد، ونشأ عندى توثب.

توقفتْ العربة فى الساحة الأمامية الممهدة. أشم مياه النهر القريب، الزرع الكثيف، أتقدم من الباب الذى يتخلل السور، أجتازه، أمامنا ممر ليس بالقصير، محفوف بأشجار التين، التفت لأتعجل ماجدة الصغيرة، لتتعلق بيدى، ثمة شيء ما يتغير..

ضوء مغاير لا أعرفه إلا شتاءً. الزرع مختلف. خضرة أعمق، على جانبى الممر الطويل زهور بنفسجية يتوسط كل منها دائرة صفراء، أتوقف، أتلفتُ حولى، يلحقنى ذلك الشاب المشوق. يرتدى ملابس الفندق القديم القريب..

«تحتاج شيئًا جمال بك..»

نظرتُ إليه، ألم ينادنى عند عبور البوابة بخالد؟

ماذا جرى؟

مختتم

إذا أستعيد ما كان منى، أجد أن ما تمنيته من النساء أكثر ممن أدركتهن بالفعل، بعد فوات الأوان أعقل أن البعيد النائى أثار عندى ما لم يحققه القريب الدانى، وأن اكتمال الشيء يعني نقصانه أو بدء نفاده. لذلك قالت لى يومًا محبوبة ممن أدركتهن بالتحقق وليس بالحلم. عندما لاحظت صمتى، ورصدت بدء نكوصى..

«يبدو أنك تعشق المستحيل»

ربما كان ذلك صحيحا لكن لا يمكننى الجزم أو القطع بأى شيء الآن، ذلك أن التجديد واليقين يكون فى بداية الرحيل أنصع.

مع الدنو الحثيث يبدأ اللايقين، والغريب أن الإنسان إذا اكتمل رحل، أو يمضى بعد تمامه، يذهب جاهلا بأقرب المكونات إليه، بجسده ونفسه، هذا حديث طويل لو بدأت الخوض فيه لن أكف، لكننى أكتفى بتلميح متضمنا بعض تصريح. إن أثرى ما عشته لم أعرفه ولم أدركه إلا بقوة المخيلة، وما انقضى منى راح جله فى التمنى. لقد أوصدت دونى أبواب بلا حصر. حالت وصدت طرقت برفق. وأحيانا صرخت. ولم يأخذ بيدى إلا تخيلى ما وراءها، واجتهادى فى طى الفراغات العلى. بعضها فتح لى، اجتزته وعبرت عتباته، فلم ألق إلا الحسرة وبواعث الآهات، ذاك نثارى.

جمال الغيطانى - ١٩٩٥ - ١٩٩٦

الفهرس

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٥٤٣
الترقيم الدولى 0 - 0927 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



6 221102 012522